سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم

تأليف

الدكتور محمد شاكر عبد الله الكبيسي

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: SAYYIDUNÂ IBRÂHÎM عليه السلام
FÎ AL-QUR'ÂN AL-KARÎM
(Abraham in The Holy Qur'an)

Author: Dr. Muḥammad Šâkir 'Abdullah al-Kubaysi

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 238

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: سيّدنا إبراهيم عليه السلام
في القرآن الكريم

المؤلف: الدكتور محمد شاكر عبدالله الكبيسي

الناشر: دار الكتب العلميـــة ـ بـيروت

عدد الصفحات: 238

سنة الطباعة: 2007 م

بلد الطباعة: لبنـــان

الطبعة: الأولى

هذا الكتاب بالأصل رسالة بنفس العنوان تقدّم بها المؤلف لنيل درجة الماجستير في الفكر الإسلامي والدعوة والعقيدة الإسلامية (في العراق)

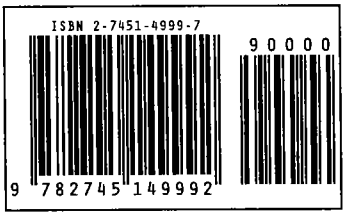

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban
Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م ـ ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم لقاه، وبعد،

فلمَّا أنهيت السَّنة التحضيرية للماجستير وطلب مني أن أُقدم عنواناً [للأطروحة] فكرت طويلًا في موضوع دعوي قرآني ليتماشى مع تخصُّصي حيث أنتسب إلى قسم الفكر الإسلامي والدَّعوة والعقيدة الإسلاميَّة؛ فأجلت الفكر وقلبت صفحات المصحف أتلمس بُغيتي، فكان (شيخ الحنيفية) إبراهيم عليه السلام يطالعني بوقاره المهيب، وصبره العجيب، وعمق إيمانه الذي لا يطال، وكلَّما سرت ازداد الكم النوراني للدعوة الإبراهيميَّة حضوراً عندي، وكأنَّه يقول لي: أقبل، وأنا أمتنع امتناع الخائف الوجل، وذٰلك لسببين يدوران في خلدي:

أحدهما: لم أشأ أن أدلف إلى ميدان واسع وعميق وأنا الطالب الذي يريد أن يمسك بدايات الطريق.

والثاني: تساؤل يجابهني كلَّما أردت الإقدام على الموضوع: ترى ماذا ترك لك الأولون في هٰذا من كلام وهم قد سبقوك بأشواط في مضمار البحث والدراسات القرآنية؟ وتحت تأثير الرَّغبة العارمة في الكتابة، يممت شطر ما كتب عن إبراهيم عليه السلام - أو لأقل - أبرز ما كتب عن إبراهيم، وأخذت نماذج من قديم في الكتابة وحديث، وتمعنت فيما قالوه حتى استقر الحال عندي أن الأمر لايزال فيه لمن يجد السير مجالًا للقول، فعقدت العزم معتمداً على الله تعالى في أن أتنوَّر بنور إبراهيم عليه السلام كما صوره لنا القرآن الكريم، فاخترت أن

أكتب في موضوع: سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، وهٰذا يعني أني سأقصر الكتابة عن سيدنا إبراهيم بما ورد في القرآن الكريم، ولا أتعرض لِمَا جاء في غيره كالتوراة والإنجيل بل وحتى السُّنَّة النبويَّة اللَّهم إلَّا ما يوضح مسألة تخص إبراهيم تعرَّض لها القرآن الكريم. ولن أتبع منهج السرد القصصي الذي اتبعه الكثيرون بل اعتمدت المنهج الدعوي لإبراهيم على أني راعيت التسلسل التاريخي لتجلية تطور الدَّعوة الإبراهيميَّة وما لاقته من قبول ورفض وكيف تصرَّف إبراهيم عليه السلام إزاء كل ذٰلك والتزمت أن أسير مع إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم بمنهج عقلاني لا توقفه عن الملاحظة إلَّا قواطع الإيمان ورواسخ العقيدة. وكان منهجي في البحث أن جعلته في مقدِّمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة؛ ففي المقدِّمة أوردت سبب اختياري للموضوع ومنهجي فيه.

والباب الأول جعلته في حياة إبراهيم عليه السلام وتكون من فصلين، تحدثت في الفصل الأول عن حياته الشخصية تناولت فيه ولادته ونسبه وأسرته ونشأته وهجراته ورحلاته، وأمَّا الفصل الثاني فذكرت فيه صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام كالصديقية[1] والحلم والأواه والإنابة والأمة وغيرها، وأمَّا الباب الثاني فهو عن نبوَّة إبراهيم وجعلته في أربعة فصول تحدثت في الفصل الأول عن ملَّة إبراهيم فصلت فيه الحديث عن نفي اليهوديَّة والنصرانيَّة عنه وعن حنيفيته وإسلامه ونفي الشرك عنه، وتحدثت في الفصل الثاني عن الابتلاءات التي ابتلى الله بها إبراهيم من ذبح ولده وإحراقه في النَّار وإبعاده زوجه وولده الوحيد في مكان خال.. وأمَّا الفصل الثالث فذكرت فيه المعجزات والمنح الإلٰهية، وأمَّا الفصل الرابع فعن صحف إبراهيم عليه السلام، أمَّا الباب الثالث فخصصته للحديث عن دعوة سيدنا إبراهيم وجعلته في فصلين: الفصل الأول عن دعوته قبل الهجرة وأساليب الدَّعوة ومناظرته للملك وجعلته الفصل الثاني للدعوة بعد الهجرة تكلمت فيه عن الجهد البدني والمعماري وتربية أبنائه على العقيدة وذكرت عباداته، وأمَّا الخاتمة فذكرت فيها نتائج البحث.

---

(١) هم الذين جمعوا على مراتب فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله، قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق وشهيد. تفسير الرازي (٢٩/ ٢٢٢).

وأخيراً، فقد جاءت الرسالة بأشياء كثيرة جديدة بحمد الله ولا غرابة فالموضوع قرآني والقرآن لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرَّد ولا يعني هٰذا أني أوصدت باب البحث أمام الدارسين في إبراهيم، فقد أدليت بدلوي ضمن هٰذه الدلاء معترفاً بأنَّ ما جئت به جزء من بناء قرآني شامخ فإن وفقت فهٰذا رجائي وسؤلي وإن بدر مني خطأ فطبيعة الإنسان أن يخطئ، وأرحب بكل من يشير إلي داعياً الله تعالى له بالتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الباحث

الباب الأول

حياة إبراهيم عليه السلام

التمهيد

عصره:

عاش نبي الله وخليله، سيدنا إبراهيم على نبيه وعليه أفضل الصَّلاة والسَّلام، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، كما حدده المؤرخون المسلمون، ودلت عليه التنقيبات الآثارية الحديثة[١]، وكانت الأوضاع السياسية في بابل - حيث ولد - قد استقرت تحت حكم النمرود بن كنعان، بعد أن استمر النزاع ردحا من الزمن، بين دويلة (أيسن ولارسا وبابل) ثم استطاعت دويلة بابل من الهيمنة على المنطقة وتأسيس دولتها القوية التي دامت أكثر من ثلاثة قرون[٢].

أمَّا في مصر: فقد أقام الفراعنة بغارات عدة على سورية وبلاد كنعان لغرض السيطرة عليها حيث استطاعت فعلًا من بسط نفوذها على هٰذه المناطق أيضاً[٣].

ومن الناحية الاقتصادية، «كان أهل بابل ينعمون برغد العيش»[٤]، حيث الأنهار العظيمة - دجلة والفرات - والأراضي الواسعة الصالحة للزراعة، وقد

---

(١) انظر: العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، ط٢، دار الاعتدال، دمشق ١٩٧٣م (٢٦٢ - ٢٦٣)؛ وفيه أيضاً: أنَّه البحاثة الفرنسي دي فو انتهى إلى هٰذا الرأي في دراسته عن الخليل سنة ١٩٦٥م.

(٢) انظر: العرب واليهود في التاريخ - المصدر السابق (٢٦٤).

(٣) المصدر السابق (٢٦٥).

(٤) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، أحمد عبد الرحمٰن البنا، طبعة دار الحديث، القاهرة (٢٠/ ٤٩).

كانت الزراعة عامرة والصناعة مزدهرة؛ إذ قامت صناعات متطورة ومهن مختلفة، بل وصلت الصناعة درجات من الرقي استطاعوا بواسطة بعض ما صنعوه من رصد النجوم ومعرفة حركة الأفلاك[١]، وقد تبادل البابليون التجارة مع بلاد الشام وصر بل حتى مع الإغريق، وبهٰذه الوسيلة أخذ الإغريق وسائل الحضارة من البابليين قبل أن يعرفها الأوربيون بعهود طويلة[٢].

وعن حالتهم الاقتصادية يقول المسعودي: (فهؤلاء الملوك الذين أتينا على ذكرهم... هم الذين شيدوا البنيان ومدنوا المدن وكوروا الكور وحفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، واستنبطوا المياه، أثاروا الأرضين، واستخرجوا المعادن من الحديد والرصاص والنحاس وغير ذٰلك، وطبعوا السيوف واتخذوا عدة الحرب وغير ذٰلك من الحيل والمكايد)[٣].

أما الحياة الدينية في هٰذا العصر؛ فقد كانت تقوم على تعدد الآلهة في معظم الأرجاء، هكذا كان الأمر في الجزيرة العربيَّة والعراق وسوريا وكنعان ومصر، وقد تعددت الآلهة المعبودة، فهناك الآلهة الصغيرة وهناك الكبيرة، وهناك عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة النَّار، وقد أقيمت المعابد والهياكل للآلهة ونصبت فيها وقدمت لها القرابين، وتقرب إليها النَّاس حتى الملوك[٤]، يقول المرحوم عبد الوهَّاب النجار: (... والكعبة أول بيت وضع للنَّاس لعبادة الله تعالى، في حين أن بقية الشعوب والقبائل في سائر أنحاء الأرض كانوا يبنون

---

(١) انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، ط٢، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م (١/ ٢١٨)؛ وأيضاً: قصص القرآن، محمد جاد المولى وجماعة، طبعة دار الجيل، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م (٣٢).

(٢) انظر: اليهود والعرب في التاريخ (٥٦).

(٣) مروج الذهب للمسعودي (١/ ٢١٨).

(٤) انظر: مروج الذهب (١/ ٤٤)؛ الملل والنحل، أبي الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م (١/ ٢٢٢)؛ مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبد الفتاح طبارة، طبعة دار الملايين، بيروت (١٠٨)؛ وأيضاً: أحمد سوسة، مصدر سابق، (٥٨).

البيوت لعبادة الأصنام والتماثيل وكان أهل مصر يعبدون آلهة متعددة، تارة في وقت واحد، وتارة في أوقات متعددة، فمن عبادة الشمس إلى عبادة الثور إلى عبادة الآلهة الثلاثة، أزوريس وإيزيس وابنهما حوريس، وكانوا يرمزون بذلك إلى صفات الله تعالى، ويصنعون التماثيل لتلكم الرموز. وكان الآشوريون يعبدون بعل شموس أي إله الشمس، ويصنعون له صنما على نحو أبي الهول، له رأس إنسان وجسم أسد وله أجنحة، وكان الكنعانيون يعبدون البعل وهو على وصف بعل شموس بدون أجنحة... وكان أهل غزة يعبدون داجون ويصورونه إنسانا له جسم سمكة.. وآخرون كانوا يعبدون العشتارون صنم على هيئة أنثى)[١].

أما الحياة الاجتماعية، فقد كان للأسرة والعشيرة الحظ الأوفر في بناء المجتمع وقيادته، فأساس الدول آنذاك هو سيطرة القبيلة القوية على القبائل الأضعف، ويقود القبيلة رجل من إحدى أسرها العريقة، وينقادون له دنيويا وربما دينيا أيضاً[٢].

أمَّا تكوين الأسرة، فبطريق الزواج الشرعي الذي تعارفه النَّاس وأخذته الشرائع، وهنا ينبغي أن نشير إلى أن الرسول ﷺ أعلمنا أنَّه من نسل طاهر لم يدنسه الخنا إلى آدم عليه السلام، ومن نسله الشريف إبراهيم عليه السلام، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إن الله خلق الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مُضَر، واختار من مُضَر قريشا، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خير من خيار**... الحديث»[٣].

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهَّاب النجار، مطبعة العلوم، القاهرة ١٣١٥هـ/ ١٩٣٢م (٨٢ - ٨٣).
(٢) انظر: حياة إبراهيم، محمود شلبي، مكتبة القاهرة (١٣).
(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ٧٣) وفي معرفة علوم الحديث (١٦٦).

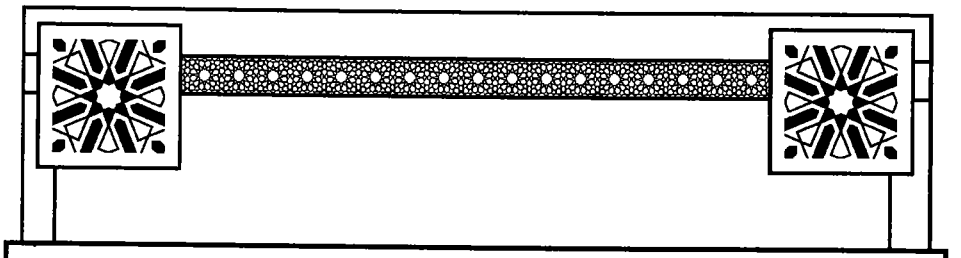

الفصل الأول

حياته الشخصية

المبحث الأول
ولادته ونسبه وأسرته

أولاً: ولادته

ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرن التاسع عشر قبل الميلاد[١]، وقيل في القرن السابع عشر[٢]، وقد حدد سفر التكوين الصغير ولادته عليه السلام بالعام ١٨٧٦ قبل الميلاد[٣]، وقد كان عمر أبيه عند ولادته خمساً وسبعين سنة[٤].

وأكثر الروايات التاريخية أنَّه ولد بأرض بابل في العراق، وحدد بعضهم مدينة كوثي[٥] أرضاً لولادته فيما قال آخرون أنَّه ولد بالوركاء[٦]، وبعض الروايات يذكر أنَّه ولد بحران[٧] أو في مدينة قريبة من دمشق.

---

(١) انظر: العرب واليهود في التاريخ (٢٥٠).

(٢) انظر: الأنبياء مع القرآن (١٠٧).

(٣) انظر: إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، دار الكتب، بيروت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م (٧٦).

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢/ دار المعارف، القاهرة (١/ ٢٢٢).

(٥) كوثي: اسم لثلاثة مواضع بمكة واحد، وفي العراق اثنان، كوثي الطريق وكوثي ربّي، وبها مشهد إبراهيم الخليل وبها مولده، وهما من أرض بابل، وبها طرح إبراهيم في النار. انظر: معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، طبعة دار صادر، بيروت (٤/ ٤٨٧).

(٦) الوركاء: موضع بناحية الروابي ولد به إبراهيم الخليل وهو من حدود كسكر. معجم البلدان (٥/ ٣٧٢).

(٧) حران: مدينة على طريق الموصل والشام والروم، وقيل سميت بهاران أخي إبراهيم عليه السلام لأنَّه أول من بناها، فعربت حران، وكانت منازل الصابئة. معجم البلدان (٢/ ٢٢٥).

وما ذكر أولًا من أنَّه ولد في أرض بابل هو الذي تدعمه التحقيقات العلمية والآثارية[١]، وقد أوردت المصادر نبأ ولادته نسوقه كما أوردوه، إذ قالوا: (إن الملك الطاغية - النمرود بن كنعان - أخبره المنجمون أنَّه سيولد مولود يسفه أحلامهم ويزيل عبادتهم، فأمر بقتل الذكور والإبقاء على الإناث، فحمى الله نبيه إبراهيم من ذٰلك؛ بإخفاء حمله وولادته، حيث خرجت أمه حين جاءها المخاض إلى كهف، فولدته وتركته فيه، وعاش فيه زمنا طويلًا برعاية الله، ولا يعرف الملك شيئا من أخباره)[٢]، وإذا كان في الخبر غرابة؛ فإن قراءة نبأ ولادة موسى وإلقاءه في البحر التي جاءت في القرآن الكريم تزيل هٰذه الغرابة، إذ كل منهما نبي محفوظ بحفظ الله له.

ثانياً: نسبه

اقتصر القرآن الكريم من نسب إبراهيم عليه السلام على ذكر أبيه فقط وأن اسمه آزر حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[٣].

أمَّا سفر التكوين؛ فقد أورد نسبه إلى نوح عليه السَّلام، وعليه اعتمد المؤرخون المسلمون غير أنَّه أورد اسم أبيه بغير ما سماه القرآن فسماه تارح، وسأقف عند هٰذا الأمر فيما بعد. أنتقل الآن إلى جد إبراهيم عليه السلام فهو ناحور بن ساروخ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح[٤].

على أن الطبري[٥] زاد بين شالخ وأرفخشد شخصا آخر سماه قينان ومن

(١) انظر: العرب واليهود (٢٦٢ - ٢٦٣).
(٢) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٣٤).
(٣) سورة الأنعام: الآية (٧٤).
(٤) انظر: مروج الذهب للمسعودي (٤٣ - ٤٤)؛ وأيضاً: البداية والنهاية، لأبي الفداء الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وجماعة، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م (١/ ١٣٢)؛ وأيضاً: قصص الأنبياء، ط٢، دار الهلال، بيروت ١٩٨٧م (١٢٠)؛ وينظر أيضاً: إبراهيم أبو الأنبياء للعقاد (٢٣)؛ وينظر: العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح (١١).
(٥) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٣٣).

المسعودي نفهم أن هؤلاء الرجال كانت لهم السيادة على قومهم واحداً بعد الآخر، وفي ذٰلك يقول: (وكان القيم بعد سام في الأرض ولده أرفخشد، ولمَّا قبض الله أرفخشد قام بعده ولده شالخ، ولمَّا قبض الله شالخ قام بعده ولده عابر فعمر البلاد، ولمَّا قبض الله عابر قام بعده ولده فالغ على نهج من سلف من آبائه، ولمَّا قبض الله فالغ قام بعده ولده رعون بن فالغ وقيل أن في زمنه كان مولد نمرود الجبار، ولمَّا قبض الله رعو قام بعده شاروخ بن رعو وقيل أنَّه في أيامه ظهرت عبادة الأصنام والصور، ولمَّا قبض الله شاروخ قام بعده ناحور بن شاروخ مقتديا بمن سلف من آبائه، ولمَّا قبض الله ناحور قام بعده ولده تارح وهو آزر أبو إبراهيم الخليل، وفي عصره كان نمرود بن كنعان وفي أيام النمرود حدثت في الأرض عبادة النيران والأنوار...)[1]، وقد تكلم كثيرون عن الأصل الذي انحدر منه إبراهيم عليه السلام ولا خلاف بينهم بأنَّه سامي الأصل، لكن إلى أي من الساميين هو؟

فقال اليهود: هو عبري، وقال آخرون: هو عربي، والنص القرآني يوضح أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ولم يتكلم لغة اليهود بل أنَّه تكلم بلغة إن لم تكن عربية فهي أقرب إلى العربيَّة منها إلى العبرية، فمن ذٰلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۞ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۞ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2].

فبعد أن نفى عنه اليهوديَّة والنصرانيَّة أعلن أنَّه حنيف، ومن معاني الحنيف - العربي - (فقد كان أهل الكتاب يدعون العرب حنفاء)[3]، وبعد أن عرفه بأنَّه حنيف - عربي - نفى عنه ديانة العرب وهي الشرك، فوصفه بكونه

(١) مروج الذهب (١/ ٤٣ - ٤٤).
(٢) سورة آل عمران: الآيات (٦٥ - ٦٧).
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط٢، دار المعرفة، بيروت (٣/ ٣٢٩).

﴿مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١]. أي أنَّه عربي لكنَّه غير مشرك.

يقول د. أحمد سوسة: (وخلاصة القول: إن ما تقدم يدل دلالة واضحة على أن إبراهيم كان شخصية عظيمة زعيماً سياسياً وروحياً، لعب أكبر دور في تاريخ الإنسانية وهو عربي قح متصل بالقبائل العربيَّة في جزيرة العرب)[٢].

ثالثاً: أسرته

ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام من أسرة ذات نفوذ وسيادة، فأبوه (كان سيد قبيلة أور في بلاد بابل يرجعون إليه في شؤون دنياهم كما كان يتزعمهم في شؤون دينهم ويقودهم في عبادة الأصنام)[٣].

أ- أبوه وأمه:

أمَّا أجداده فقد ذكرنا طرفاً من تزعمهم قومهم، وقد كان أبوه ذا حظوة عند الملك ومن المقربين لديه، وقد تزوَّج هٰذا الرجل امرأة من قومه سمَّاها بعضهم إيمثالي بنت كرناب[٤]، فيما قال ابن كثير أن أم إبراهيم هي إميلة وقال الكلبي هي بونا بنت كربتا بن كوثي من بني آرفخشد بن سام بن نوح[٥]، في حين سمَّاها البعض عوشاء[٦] وإذا كان الخلاف في اسم أم إبراهيم لا يشكِّل لبساً فإن الخلاف في اسم أبيه بعد أن صرَّح القرآن الكريم باسمه أمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب؛ لذٰلك سنقف عنده لتجلية الأمر.

فنقول وبالله التوفيق:

سمَّى القرآن الكريم أبا إبراهيم آزر وسمَّاه العهد القديم تارح وقد سلك المفسرون في ذٰلك مذاهب ثلاثة:

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٦٧).
(٢) العرب واليهود في التاريخ (٢٦٢).
(٣) انظر: حياة إبراهيم (١٣).
(٤) إبراهيم أبو الأنبياء (٦٠).
(٥) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٣٢)؛ وقصص الأنبياء لابن كثير (١٢٠).
(٦) العرب واليهود في التاريخ (٢٥١).

المذهب الأول: يرى أن الاسم هو آزر وممن ذهب إلى هٰذا من السَّلف ابن عباس، والسدي، ومحمد بن إسحاق، واعتمده الطبري[١]، واحتج أصحاب هٰذا المذهب بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[٢]، وبما ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي إلَّا بعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين**»[٣].

المذهب الثاني: يرى أصحاب هٰذا المذهب أن اسم أبي إبراهيم هو تارح كما ورد في العهد القديم، وممن قال بذٰلك: مجاهد والسدي في رواية، ويؤول أصحاب هٰذا الرأي ما ورد في القرآن الكريم ويذكرون دليلا لهم: (إن النسابة قد أجمعوا على أن اسمه تارح لا آزر)، وقد رفض الرازي تسليم الإجماع عليه (لأن ذٰلك الإجماع إنما حصل لأن بعضهم يقلد بعضاً، وبالآخر يرجع ذٰلك إلى قول الواحد والاثنين)[٤]، وكذٰلك لأنَّهم نقلوه عن أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم[٥].

ويرى الدكتور عبد السَّلام البدوي أن هٰذا الرأي هو الأمثل لذٰلك فقد استبسل كثيراً في الدفاع عنه حتى جنح بعيداً في الاستدلال بما لا يصلح أن يكون دليلا حيث يقول:

١- إذا كانت آية الأنعام تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ فليس معنى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة دار المعارف، القاهرة (١١/ ٤٦٦ - ٤٦٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٤).

(٣) فتح الباري (٦/ ٣٨٧).

(٤) التفسير الكبير، للفخر الرازي، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران (١٣/ ٣٧).

(٥) انظر: تفسير الخازن (باب التأويل في معاني التنزيل)، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن (ت٧٢٥هـ)، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (م٢/ ٢٦).

هٰذا[١] أن آزر أبوه، بل قد يكون هٰذا التعبير دليلا على أنَّه ليس أباه ممثلا بقول القائل: إن أبي اسمه محمد وعمي اسمه حامد فإذا أنت قابلت عمي في مكان ما؛ فإنك لا تقول لي لقد قابلت أباك محمدا وإنما تقول: قابلت أباك حامدا في مكان كذا.. وإذا قابلت أبي الحقيقي محمد فلا تقول لي قابلت أباك محمد وإنما تقول: قابلت أباك فقط، وعليه فذكر اسم آزر بعد أبيه لا يدل على أنَّه أبوه حقيقة ولكنها تحمل معنى العم ويرد على هٰذا الاستدلال أمور منها:

أنَّه من العجب أن تستدل على مسألة قرآنية صرح بها القرآن كحقيقة اسم والد سيدنا إبراهيم بعرف يخص ذٰلك البلد الذي يعيش فيه المؤلف فضلا عن العرف الذي يمضي عليه آلاف من الأعوام. وعليه، فلا يجوز مخالفة نص قرآني صريح بناء على عرف قد يصح وقد لا يصح:

❐ ويقول الأستاذ في نهاية استدلاله: ولكنها تحتمل معنى العم[٢]، تقول: وقوله هٰذا.. أي لكنها تحتمل معنى العم، ليس دليلًا أنَّه عمه فليس مجرد الاحتمال وحده كافيا على إثبات حقيقة ما، إلَّا إذا وجد الدليل المقنع في ذٰلك.

❐ ومن باب آخر، لو كان العم يُجعل محل الأب في التسمية، لكان أبو طالب أولى بأُبوة النبي محمد ﷺ إذ أنَّه من الثابت والمعروف أنَّه قد تولى رعايته منذ صغره ومع ذٰلك عندما منع النبي ﷺ من الاستغفار له لم يثبت له القرآن وصف الأبوة وإنما أثبت له وصف القرابة بقوله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ...﴾[٣].

❐ ويرد على ذٰلك أيضاً ما قاله الإمام الرازي أن هٰذا يصار إليه لو دلَّ دليل ظاهر على أن والد سيدنا إبراهيم ما كان اسمه آزر وهٰذا الدليل لم يوجد البتة، وأقوى من هٰذا أن الآية تحمل على المعنى الظاهر، وأن اليهود والمشركين كانوا في غاية الحرص على تكذيب الرسول ﷺ، فلو كان هٰذا النسب كذبا لامتنع

(١) من أنباء الرسل، عبد السَّلام محمد بدوي، طبعة دار القاهرة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م (٩٧).
(٢) من أنباء الرسل، عبد السَّلام بدوي (٩٧).
(٣) سورة التوبة: الآية (١١٣).

سكوتهم على تكذيبه وحين لم يكذب علمنا أن هٰذا النسب صحيح[١].

المذهب الثالث: يرى أصحاب هٰذا المذهب أن آزر وتارح اسمان لشخص واحد، أو أحدهما، وأصحاب هٰذا القول يثبتون أبوة ذٰلك الطاغية لسيدنا إبراهيم سواء كان آزر أو تارح، ومن قال بذٰلك محمد بن إسحاق والكلبي والضحاك[٢]، واستدلوا لما ذهبوا إليه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[٣]، ومن حيث أن القرآن الكريم ذكره باسم آخر هو يعقوب[٤]، فلمَّا جاز أن يذكر مثل ذٰلك فلا مانع من أن يتكرر مع سيدنا إبراهيم في اسم أبيه. وبالرغم من وجاهة هٰذا القول إلَّا أنَّه يمكن أن ترد عليه بعض الإيرادات والتي منها:

١- أنه لا وجه للمقارنة بين نبي ذكره الله تعالى وبين اسمه ونسبه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم مع شخص عاص لم يثبت له حتى الإيمان، إذ أن آزر لا عبرة لاسمه بخلاف سيدنا يعقوب عليه الصَّلاة والسَّلام.

٢- القرآن الكريم وهو يتكلم عن حدث مهم يتعلق باسم نبي أو غيره فإنه يثبته حتى اليقين لينفي بذٰلك عنهم أية شبهة ممكن حصولها خصوصا فيما يتعلق بالنسب وقد أشار القرآن الكريم إلى اسم سيدنا يعقوب وبنوته لإبراهيم ونبوته لبني إسرائيل، فحينما يصفه بوصف آخر أو يذكر باسم آخر لا يضره ذٰلك الاسم أو الوصف الجديد لمعرفته بالاسم الأول، لذٰلك حينما سماه القرآن باسم إسرائيل لم يختلف النَّاس في أنَّه يعقوب، من حيث أنَّه ثبت بشكل قاطع عن طريق النصوص الشرعية أن يعقوب هو نفسه إسرائيل.

---

(١) الرازي (٣/ ٣٨).

(٢) الطبري (١١/ ٤٦٦)؛ الرازي (١٣/ ٣٧)؛ تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، ط٢، دار الجيل، بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م (٢/ ١٤٢)؛ وانظر: تفسير المنار (٧/ ٥٣٦)؛ وكذٰلك: زبدة التفسير من فتح القدير (مختصر من تفسير الشوكاني)، لمحمد سليمان عبد الله الأشقر، ط١، وزارة الأوقاف الكويتية، الكويت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م (١٧٤).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٩٣).

(٤) انظر: الطبري (١١/ ٤٦٦).

والذي يبدو لي أن السبب في اختلاف العلماء في اسم أبي إبراهيم عليه السلام يعود إلى:

الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[١].

وجه الدلالة من الآية:

أن النبي ﷺ ينقلب من ظهر ساجد إلى ظهر ساجد، فكيف يكون ظهر آزر من ظهور الساجدين؟ واستدلوا أيضاً بقوله: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»[٢].

ويرد على هٰذا الرأي بما يلي[٣]:

إن سبب نزول الآية قد ذكر له أهل التفسير وجوها ومعاني عدة، منها:

- أنه لما نسخ قيام الليل طاف الرسول ﷺ تلك الليلة على بيوت الصحابة لينظر ماذا يصنعون فوجدها كبيوت الزنابير لكثرة ما سمع من أصوات قراءاتهم وتسبيحهم وتهليلهم، وهو المراد في الآية، أي: طوافه على الصحابة.
- ومعنى: وتقلبك في الساجدين، أي: اختلاطك بين أصحابك في الركوع والسجود أو معنى.
- تقلبك في الساجدين، إن الله لا تخفى عليه حالك كلَّما قمت وتقلبت مع الساجدين في الانشغال بأمور الدين.
- وقال بعضهم: إن المراد من قوله وتقلبك في الساجدين: تقلب بصر النبي ﷺ فيمن يصلي خلفه، والدليل قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**أتموا الركوع والسجود فإني أراكم من وراء ظهري**»[٤].

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (٢١٧ - ٢١٩).
(٢) أوردته كتب التفسير ولم أجده في كتب الحديث.
(٣) الرازي (١٣/ ٣٨) وما بعدها؛ وأيضاً: أنباء الرسل (٩٨).
(٤) النسائي (٢/ ٩٢).

والحقيقة أن هٰذه الآراء لا تخلوا من تكلف في التأويل ولا يصح أن تكون دليلًا على المراد من الآية إلَّا بنص صريح.

يقول الإمام الرازي: ولفظ الآية محتمل للكل - فليس حمل الآية على البعض أولى من حملها على الباقي - فوجب أن تحملها على الكل وحينئذ يحصل المقصود[١].

وأمَّا استدلالهم بالحديث على كون آباء النبي ﷺ من الطاهرين، بمعنى المؤمنين الموحدين، فلا دليل بعضده - بل إن الواقع يشهد بخلافه - فكثير من الأنبياء كانوا يعانون من آباء كفرة أو أبناء كفرة وخير شاهد على ذٰلك هو أبو النبي ﷺ، فبالرغم من أنَّه من أهل الفترة، فلم يثبت أنَّه كان موحداً.

فقوله ﷺ: «**لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات**» محمول على أنَّه ما وقع في نسبه ما كان سفاحاً[٢].

الأمر الثاني: يعود السبب في الاختلاف بالنسبة لوالد سيدنا إبراهيم عليه السلام، ما صرحت به الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل، حيث ذكرت هٰذه الكتب أن اسم والد سيدنا إبراهيم تارح؛ ويرد على هٰذا السبب أن تلك الكتب قد ثبت تحريفها كما أشار إلى ذٰلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾[٣]، وحينئذ لا يجوز العدول عن ظاهر النص القرآني لمجرد وجود رواية في كتب تلاعب الكهنة والرهبان بتغييرها.

ثم أن هٰذا الاسم لم يثبت عن طريق السُّنَّة ولو كان الاسم كما ذكرت هٰذه الكتب للزم منه اعتراض اليهود والنصارى والمشركين الذين كانوا يتربصون بكل ما يقوله النبي ﷺ، وسكوتهم دليل على إقرارهم، وقد أشار إلى ذٰلك

(١) الرازي (١٣/ ٣٩).
(٢) نفس المصدر (١٣/ ٤٠).
(٣) سورة المائدة: الآية (١٣).

الرازي[١]. لذلك أرى أن المذهب الأول هو المرجح، والله أعلم.

وهو ما صرح القرآن الكريم بذكره ألا وهو اسم أبيه آزر فقط، أمَّا غير ذلك فلم يصح منه شيء ولم يرد به دليل صحيح من كتاب أو سنة حسب اطلاعي، قال صاحب المنار رحمه الله فيما يخص ذلك: (ولا نعرف لهذه الأقوال أصلا مرفوعاً على النبي ﷺ ولا منقولًا عن العرب الأولين وإنما هو منقول فيما يظهر عمن دخل في الإسلام من أهل الكتاب كوهب منبه وكعب الأحبار الذين أدخلا على المسلمين كثيراً من الإسرائيليات فتلقوها بالقبول على علاتها)[٢].

ب - زوجاته وأولاده:

تزوج إبراهيم عليه السلام أربع زوجات، هن: سارة وهاجر وقطوراء وحجون، وهذه بعض تفاصيل زواجه منهن:

١ ـ سارَّة:

تزوَّج إبراهيم عليه السلام أولى زوجاته، وهي سارَّة ابنة عمه هاران كما قال أكثر المؤرخين[٣] فيما سمَّاه المسعودي بتوابل بن ناحور[٤]، وذهب بعضهم إلى أنها ابنة ملك حران[٥] ونجد من يقول: إنها ابنة أخيه هاران أبي لوط[٦]، والأغرب من هذا أن يقول بعضهم أنها اخته، فهي ابنة تارح - آزر - لكنها من زوجة أخرى غير أم إبراهيم[٧]، ولقد وال إلى هذا الرأي - أعني أنها أخته لأبيه - المرحوم عبد الوهَّاب النجار[٨].

وقد وصف ابن كثير أصحاب الرأي القائل ابنة أخيه بقوله: (ومن زعم أنها

---

(١) انظر: الرازي (١١/ ٣٨).
(٢) تفسير المنار (٧/ ٥٣٦).
(٣) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٤١).
(٤) انظر: مروج الذهب (١/ ٤٥).
(٥) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٤١).
(٦) نفس المصدر والصفحة.
(٧) انظر: إبراهيم أبو الأنبياء (٢٣).
(٨) قصص الأنبياء للنجار (٧٥).

ابنة أخيه هاران، أخت لوط؛ فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم وادعى أن تزويج بنت الأخ إذ ذاك وشروعاً، فليس على ذٰلك دليل، ولو فرض أن هٰذا كان مشروعا في وقت؛ فإن الأنبياء لا تتعاطاه، والله أعلم)[١]. إذن فبم يجيب من قال أنها أخته؟ إنه لا شك أبعد عن الصواب. أمَّا وقت زواج إبراهيم عليه السلام من سارة رضي الله عنها فهو على أقل تقدير بعد خروجه من النَّار سالما، أمَّا من قال أنها ابنة ملك حران، فقال: إنه تزوجها بعد هجرته من بابل ودخوله حران[٢]، ومع أن الله تعالى وهب لها الجمال، كانت عاقرا فلم تنجب لإبراهيم عليه السلام مدة أو زمناً طويلًا، ثم أن الله تعالى منّ عليها بالذرية عند شيخوختها حيث أنجبت إسحاق عليه السلام، وقد عمرت سبعا وعشرين ومائة سنة، وماتت في مدينة حيرون[٣] (الخليل) فاشترى إبراهيم عليه السلام مغارة بأربعمائة مثقال ودفنها فيها[٤].

٢ ـ هاجر:

بعد أن عاد إبراهيم من مصر إلى أرض كنعان (فلسطين) - كما سنفصل ذٰلك فيما بعد - كانت سارة قد حصلت على فتاة مصرية قبطية تدعى هاجر لا يعرف عنها شيء أكثر من هٰذا إلَّا قولهم (أنها كانت وضيئة)[٥].

ولما كانت سارة عاقرا وهبت لزوجها هٰذه الفتاة لعل الله يرزقه منها ولداً فدخل بها إبراهيم وأنجبت له إسماعيل عليه السلام ثم أنها هاجرت مع ابنها إسماعيل واستقرت في مكة بعد انبثاق زمزم وبقيت هناك إلى أن توفاها الله في مكة ودفنها إسماعيل عليه السلام قريبا من الحجر[٦].

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٤١ - ١٤٢).
(٢) نفس المصدر (١/ ١٤١).
(٣) حيرون: اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم عليه السلام، وقد غلب على اسمها الخليل، وفيها دفنت سارة وزوجة إسحاق، ثم إسحاق ويعقوب وزوجته. معجم البلدان (٢/ ٢١٢).
(٤) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير (١٧٤).
(٥) تاريخ الطبري (١/ ٢٤٧).
(٦) انظر: الكامل لابن الأثير (١/ ٥٨)؛ النبوة والأنبياء (١٦٤).

٣ ـ قنطوراء:

بعد وفاة سارة تزوَّج إبراهيم عليه السلام من امرأة أخرى تدعى قنطوراء بنت يقطن الكنعانية، فولدت له ستة أولاد اختلف المؤرخون في أسمائهم[١].

٤ ـ حجون:

كما تزوج عليه السلام امرأة رابعة تسمحة حجون بنت أمين كما قال بعضهم[٢]، فيما سماها آخرون حجور بنت أرهير[٣] فولدت له خمسة أولاد.

ج - أولاده:

ولد لإبراهيم عليه السلام من زوجاته الأربع أولاد كثيرون بلغ عددهم الكلي ثلاثة عشر ولداً، وبما إنا نرسم الخط القرآني حيث لم يورد من أولاده إلَّا إسماعيل وإسحاق عليهما السَّلام، فإنا نقف حيث وقف القرآن الكريم فنتكلم عنهم بإيجاز:

١ ـ إسماعيل عليه السلام:

حين بلغ إبراهيم عمراً متقدماً، اضطرته الحاجة إلى الابن الصالح الذي يرحم أباه في شيخوخته، عندها توجه إلى ربه داعياً ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[٤]، فحباه إلٰه ابنه البكر إسماعيل من السيدة هاجر وكان عمر إبراهيم حين ولد إسماعيل تسعين عاما أو أقل بقليل[٥].

٢ ـ إسحاق عليه السلام:

إذا كان إسماعيل هبة الله لإبراهيم وهو في أشد الأيام حاجة إلى الابن،

---

(١) انظر: مروج الذهب (١/ ٤٦)؛ البداية والنهاية (١/ ١٦٤)؛ قصص الأنبياء لابن كثير (١٧٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٦٤).

(٣) تاريخ الطبري (١/ ٣١١).

(٤) سورة الصافات: الآيات (١٠٠ - ١٠١).

(٥) انظر: مروج الذهب (١/ ٤٥).

فإن ولادة إسحاق كانت نافلة وتفضيلا غير محسوب له الحساب، يدلل على هٰذا رد الفعل الذي ظهر من سارة بعد البشارة به مباشرة، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[1]، ولقد ولد إسحاق لإبراهيم عليهما السَّلام وعمره عشرون ومائة سنة، أمَّا أمه سارة فقد كان عمرها تسعين عاماً[2]، ولقد كانت ولادة إسماعيل وإسحاق الرحمة والطمأنينة لسيدنا إبراهيم، لذٰلك قال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[3].

(١) سورة هود: الآيات (٦٩ - ٧٣).
(٢) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٤٩).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (٣٩).

المبحث الثاني
نشأته، هجرته، رحلاته

أ ـ نشأته:

نشأ سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أسرته التي هاجرت إلى أرض بابل حيث استقر المقام بها هناك. ويبدو أن سيدنا إبراهيم عمل في التجارة أول الأمر مع أبيه الذي كان يبيع الأصنام، ولكنه لم ينسجم مع هٰذه الحرفة التي كان ينادي عليها قائلًا: (من يشتري ما لا يضره ولا ينفعه) فلا يقدم أحد على شرائها، وربما انطلق بها إلى النهر ينكس رؤوسها قائلًا لها: (اشربي) لذا يُرجح أنَّه قد قام بعد ذٰلك بحرفة الزراعة التي كانت سائدة في أرض بابل في تلك الحقبة من الزمن ليستعين بها على تكاليف الحياة، ومما يشار إليه هنا أن بعض الباحثين أكدوا وجود عقود ومقاولات زراعية وتجارية في هٰذه الفترة وأحد أطرافها يدعى إبراهيم[١]، ولا يعني هٰذا أنَّه سيدنا إبراهيم، لكن يبقى ذٰلك في حيز الإمكان، وتعلمنا بعض المصادر أن إبراهيم عليه السَّلام حين هاجر من أرض بابل كان يمتلك المواشي والجمال وغيرهما من الممتلكات[٢]، ولقد مر إبراهيم عليه السلام بأوقات من الضيق الاقتصادي حيث اضطره ذٰلك إلى الهجرة إلى مصر طلباً للرزق، وهٰذا ما حصل حيث عاد من مصر يسوق قطعان المواشي والأموال فنعم بعيش رغيد بعد ذٰلك[٣].

ب ـ هجراته:

بعد أن مكث إبراهيم مع قومه في بابل ردحاً من الزمان ودعاهم إلى الله،

---

(١) العرب واليهود في التاريخ (٣٥٦).
(٢) انظر: العرب واليهود في التاريخ (٢٥٦).
(٣) نفس المصدر السابق.

فلم يستجيبوا له - كما سنقف عليه فيما بعد - عزم على الرحيل عن هٰذه البلاد متوجهاً إلى الأرض المباركة - أرض فلسطين - وفي ذٰلك يقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢].

وقد اصطحب في هٰذه الرحلة زوجه سارة وابن أخيه لوط الذي آمن به كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ كل من آمن به. وقد أخذوا معهم ممتلكاتهم من الأغنام والماعز والحمير والجمال ثم خرجوا من أور باتجاه حران، مارا بمدينة ماري وهي عاصمة العموريين وقطع في هٰذه الرحلة مسافة تقدر بـ (٩٠٠) كيلومتر، وأن إبراهيم قد مر في رحلته هٰذه بمدن هيت وعانة ثم ماري فحران، ومن يقطع هٰذه المسافات الطويلة لابد أن يلتقي بأهل مدنها وقراها ويتقابل معهم[٣]، ومكث في حران زماناً ثم واصل رحلته إلى أرض الكنعانين (فلسطين) وقبل أن نترك حران نود الإشارة إلى أمرين:

أولًا: قيل أن أبا إبراهيم قد هاجر مع إبراهيم ومات في حران وله من العمر (٢٥٠سنة)[٤]، إذ يفصح القرآن أن إبراهيم هاجر للخلاص من أذى المشركين وأبوه كان من أشهدهم تمسكاً بالشرك فكيف يسافر معه.

ثانياً: ذكر بعضهم أن إبراهيم تزوَّج من سارة عندما وصل حران وهي ابنة ملك حران[٥]، واستغرب هٰذا ابن كثير[٦]، وبعد أن استقر إبراهيم في أرض فلسطين زمناً ارتحل إلى مصر، وتذكر أكثر المصادر اعتمادا على ما ذكره أهل الكتاب أن سبب هٰذه الرحلة القحط والمجاعة التي حلت في أرض فلسطين وفي أرض مصر وقعت لسيدنا إبراهيم حادثة من حوادث الابتلاء نورد موجزها هنا

(١) سورة الصافات: الآية (٩٩).
(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).
(٣) انظر: العرب واليهود (٢٥٧ - ٢٥٨).
(٤) قصص الأنبياء، ابن كثير (١٢١).
(٥) انظر: تاريخ الطبري (١/ ١٤٤).
(٦) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير (١٣٥).

على أنّا سنورد تفاصيلها عند الكلام على ابتلاءاته عليه السلام، وهي أن فرعون مصر وصلته معلومات تفيد أن رجلًا يدعى إبراهيم قدم مصر ومعه امرأة ذات جمال فائق فأرسل بطلب إبراهيم ثم أمره بأن يجهز زوجته ويرسلها إليه وبعد أن أدخلت عليه حاول إيذاءها لكن الله حماها منه فأعادها إلى إبراهيم بعد أن وهب لها هاجر ومنحهم أموالا وعبيداً ودواباً كثيرة فعاد إبراهيم عليه السلام إلى أرض فلسطين بكل ذٰلك[1].

ج ـ رحلاته:

تمهيد: الذي يبدو لي أن هٰذه الرحلات التي قام بها سيدنا إبراهيم كانت بأوامر إلهية لغرض إعداده وتأهيله للنبوة؛ فكل رسول لابد أن يمر بمرحلة الإعداد والتأهيل فحادثة شق الصدر والإسراء والمعراج لرسولنا ﷺ كانتا بمثابة إعداد وتهيئة، فكذٰلك هٰذه الرحلات التي قام بها سيد الأنبياء هي بمثابة إعداده وتهيئته لمرحلة النبوة والرسالة.

الرحلة الأولى:

وبعد أن استوطن إبراهيم الخليل في الأرض المقدسة ارتحل إلى مكة المكرمة عدة رحلات ولأغراض مختلفة نبينها بشيء من التفصيل.

صدر الأمر الإلٰهي إلى إبراهيم عليه السلام أن يسكن بعض ذويه وهم هاجر وابنها إسماعيل في مكة فأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها إسماعيل متجهاً نحو أرض مكة ودليله إليها جبريل عليه السلام[2] وبعد أن أوصلهما إلى أرض مكة ترك لهما بعض الطعام والشراب[3] وعاد إلى أرض فلسطين وفي ذٰلك يقول القرآن الكريم على لسانه عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٤٤ - ٢٤٥)؛ الكامل (١/ ٥٧)؛ قصص الأنبياء، ابن كثير (١٣٦)؛ العرب واليهود (٢٦٥).
(٢) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٥٤).
(٣) انظر: فتح الباري (٦/ ٣٠٨).

لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[١].

الرحلة الثانية:

قام إبراهيم عليه السلام برحلة ثانية إلى مكة المكرمة وهٰذه المرة لتنفيذ الأمر الإلٰهي بذبح ابنه إسماعيل ولا نتكلم عنها هنا بل سنذكرها مفصلة في مبحث ابتلاءات إبراهيم.

الرحلة الثالثة والرابعة:

لم يشر القرآن الكريم إلى هاتين الرحلتين وإنما وردنا في الأحاديث الصحيحة ومجملها أن إبراهيم عليه السلام زار بيت إسماعيل في مكة بعد أن تزوَّج إسماعيل فلم يجد ابنه في البيت وإنما وجد زوجته فقط فوجه إبراهيم إليها أسئلة أجابت عنها بسلبية مطلقة فقد سألها عن حالهم فقالت: شر حال فقال لها إبراهيم عليه السلام: (إذا جاء إسماعيل فأبلغيه أن يغير عتبة داره) وعاد راجعاً فلمَّا عاد إسماعيل أخبرته بما حدث فعلم أن أباه طلب منه طلاقها فطلقها وتزوج ثانية، فزارهم عليه السلام مرة أخرى ووجد زوجته الجديدة ولم يجد إسماعيل أيضاً فسألها عنه فأخبرته أنَّه ذهب إلى الصيد فسألها عن أحوالهم فأجابته عن كل ذٰلك بخير فقال لها: (إذا جاء إسماعيل عليه السلام أخبرته زوجته بما حدث فعلم أنَّ أبوه إبراهيم وأنه يطلب منه التمسك بها)[٢] ثم عاد.

ويلح سؤال في الذهن مفاده إذا كان إبراهيم عليه السلام يسكن الشام فيأتي قاطعاً الفيافي والقفار لزيارة ابنه في مكة، ثم لم يجده في البيت وإنما خرج للصيد، فلمَ يعود قبل أن يلتقي بابنه ويحادثه؟

والجواب:

إن هٰذه الزيارات المتكررة توحي بأن إبراهيم عليه السلام لم يستخدم الوسائل

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري بشرح العسقلاني، فتح الباري (٦/ ٣١١)؛ تاريخ الطبري (١/ ٢٥٦ - ٢٥٧)؛ قصص الأنبياء، عبد الوهَّاب النجار (٨٦).

المعتادة آنذاك في التنقل وإنما كان يعتمد خوارق العادة، ويؤكد هٰذا ما أورده المؤرخون أن إبراهيم كان يركب البراق في رحلاته وأن جبريل عليه السلام كان دليله[1]، هٰذا من ناحية سهولة الوصول إلى مكة، أمَّا إذا لماذا لم يلتقِ بإسماعيل فيمكن إرجاع ذٰلك إلى أحد أمرين:

أولًا: أمر إلهي تلقاه إبراهيم، فأمر بأن تكون الزيارة على هٰذا الوصف فما أن دخل إبراهيم وخاطب زوج ابنه حتى صدر الأمر الإلٰهي له أن يعود فوراً ولا ينتظر ابنه ويكون هٰذا ابتلاء لإبراهيم عليه السلام، وهٰذا الابتلاء تربية إلهية وإعداد رباني واستعداد نفساني وتوجيه روحي لتقبل تعاليم الرسالة الإلٰهية فالله هو الذي يختارهم ويؤهلهم تأهيلًا خاصاً فما معنى بعده عن ابنه ثم يقطع الفيافي والقفار ثم يزوره ولم يجده وهو في منتهى الشوق الإنساني كأي إنسان عادي ولكن الله يحجب عنه هٰذه الرؤية ويقطع هٰذا الشوق فيرجع من دون أن يرى ابنه وهٰذا هو معنى الابتلاء فهو منحة إلهية في سبيل الإعداد للنبوة والرسالة.

ثانياً: إن إبراهيم يتمكن من لقاء إسماعيل عليه السلام بسهولة ومتى ما أراد ذٰلك، وقد لا يكون مكان اللقاء بيت إسماعيل وفي مثل هٰذه الحال لا يكون عدم اللقاء به محزناً لكن سياق الكلام لا يؤيد هٰذا الأمر، وذٰلك أن الزيارة الثانية قد حدثت بعد أن طلق إسماعيل زوجته الأولى وتزوج أخرى وإبراهيم غائب عن كل هٰذه الأحداث؛ فالمدة طويلة تجعل من الأب متشوقاً للقاء ابنه، وعليه فالأمر الأول هو الراجح عندي، والله تعالى أعلم.

الرحلة الخامسة: رحلة بناء البيت الكعبة المشرفة

قام إبراهيم عليه السلام برحلته الأخيرة إلى مكة تنفيذاً للأمر الإلٰهي ببناء الكعبة المشرفة، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۞ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[2]،

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٥٣)؛ البداية والنهاية (١/ ١٥٠).
(٢) سورة الحج: الآيات (٢٦ - ٢٧).

ويقول الله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾[٢]، «فجاء إبراهيم إلى مكة والتقى بإسماعيل عند بئر زمزم»[٣].. إلخ.. الحديث وما أن انتهى من بناء البيت حتى جاء الأمر الإلٰهي بالإذن بالحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٤]، وسنتحدث بشيء من التفصيل عن بناء البيت والدعوة إلى حجه في موضع آخر إن شاء الله.

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٥).
(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٧).
(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٩٦ - ٣٩٩).
(٤) سورة الحج: الآية (٢٧).

المبحث الثالث
أوصافه ووفاته

أولاً: أوصافه

صفات الإنسان أمَّا خلقية يتحكم بها كيف يشاء وأمَّا خلقية وهٰذه إما جبلية لا يد للإنسان في إيجادها، وأمَّا قابلة للحركة بالتطبع، وسنوجز الكلام عن الصفات الخلقية لسيدنا إبراهيم عليه السلام الآن، ومما ورد في وصفه ما تحدثت به زوجة إسماعيل الثانية عندما زارهم حيث تصفه بقولها: (من أحسن النَّاس وجهاً وأطيبهم ريحاً)[١]، وفي البخاري: (شيخ حسن الهيئة)[٢].

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنَّه وصف إبراهيم بأنَّه أشبه النَّاس به عليه السلام حيث قال: «... أمَّا إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم»[٣]. وكان ﷺ يذكر صفات بعض الأنبياء؛ إذن فلماذا تطابقت صفة سيدنا إبراهيم مع صفة ابنه محمد ﷺ؟ ولما كانت صفات رسول الله ﷺ بينة لدينا يجدر أن نذكر بعضها هنا، فمن تلك الأوصاف ما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه وصف النبي ﷺ فقال: (كان ربعة من القوم، ليس بالطويل ولا بالقصير، أزهر اللون، ليس بأبيض، أمهق ولا آدم، ليس بجعد قط ولا سبل رجل)[٤].

ثانياً: وفاته

التحق خليل الله إبراهيم بالرفيق الأعلى في مدينة حيرون (الخليل)، أمَّا

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٥٩).
(٢) صحيح البخاري بشرح الفتح (٦/ ٣٩٧).
(٣) نفس المصدر السابق (٦/ ٣٨٨).
(٤) انظر: صحيح البخاري بشرح الفتح (٦/ ٣٥٤).

سبب موته فقيل أنَّه مات فجأة[١].

وقال ابن كثير: (وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السَّلف عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة والله أعلم بصحتها)[٢].

أما الطبري فأورد سبب وفاة إبراهيم قائلًا: (كان إبراهيم كثير الطعام بطعم النَّاس ويضيفهم فبينما هو يطعم النَّاس إذا هو بشيخ كبير يمشي في الحرة فبعث إليه بحمار فركبه حتى إذا أتاه أطعمه فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه فيدخلها عينه وأذنه ثم يدخلها فاه... وكان إبراهيم قد سأل ربه عزَّ وجلَّ أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت، فقال للشيخ حين رأى من حاله ما رأى: ما بالك يا شيخ تضع هٰذا؟ قال: يا إبراهيم، الكبر، قال ابن كم أنت؟ فزاد عمر إبراهيم سنتين، فقال إبراهيم إنما بيني وبينك سنتان فإذا بلغت ذٰلك صرت مثلك؟ قال: نعم، قال إبراهيم عليه السلام: اللَّهم اقبضني إليك قبل ذٰلك، فقام الشيخ فقبض روحه، وكان ملك الموت)[٣]، وتلتقي هٰذه الرواية مع ما قاله ابن كثير في أنَّه مات فجأة وتولى دفنه ولداه إسماعيل وإسحاق، أمَّا عمره حين مات فقد اختلف فيه؛ فقال بعضهم: أنَّه مئة وخمسة وسبعون عاماً، وقيل: مئتا عام، وقيل مئة وتسعون عاماً[٤]، ودفن مع زوجته في مغارة الكفلية في حيرون (الخليل)[٥].

ولأذكر العبارات الرائعة التي دعا بها ابن كثير النَّاس إلى التزام الأدب مع أنبياء الله حيث قال: فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلدة حيرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٦٣).
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٣١٢).
(٤) مروج الذهب للمسعودي (١/ ٤٦)؛ البداية والنهاية (١/ ١٦٣)؛ قصص الأنبياء لابن كثير (١٧٥ - ١٧٦).
(٥) النبوة والأنبياء للصابوني (١٦٤).

وهٰذا متلقي بالتواتر أمة بعد أمة وجيلًا بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هٰذا. إن قبره بالمربعة تحقيقاً فأما تعينه فيها فليس منه خبر صحيح عن المعصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبل الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السَّلام[1].

(١) البداية والنهاية (١/ ١٧٤)؛ قصص الأنبياء (١٧٦).

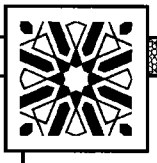
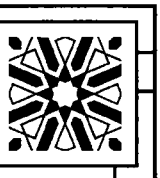

الفصل الثانـي

صفات سيدنا إبراهيم

عليه السلام

الصفات الأخلاقية للخليل عليه السلام

لقد تحدث القرآن الكريم عن الأنبياء والرسل وهم يبلغون رسالات الله فأجمل في الحديث عن بعضهم وأبهم الحديث عن البعض الآخر وفصل في الحديث عن آخرين فيما يخص التبليغ والدعوة كما هو الأمر مع سيدنا موسى عليه السلام؛ إلَّا أن القرآن ما تحدث عن شخصية نبي في أخلاقه كما تحدث عن الخليل إبراهيم عليه السلام ومن بعده سيد الأنبياء محمد ﷺ، بما يجعله واحدا من الأنبياء، بل إن الصلة بينه وبين أمة محمد ﷺ والأمم الأخرى وثيقة جداً من حيث أنَّه سمى أتباع الأنبياء والرسل بالمسلمين، ومن هنا لم يكن ذكر إبراهيم في كتاب الله تعالى كذكر الأنبياء السابقين؛ فكان النبي يذكر من جانب واحد، تكون بينه بين قومه، ولكن شيخ الأنبياء ذكر في كتاب الله من جوانب متعددة ولا عجب؛ فمآثره كثيرة ومناقبه أجل من أن تعد[1]، حيث ذكر في القرآن اثنتين وعشرين سورة تحكي لنا قصته ونبوته وحجابه مع قومه وتربطه مع غيره من إخوانه الأنبياء والمرسلين[2]؛ لذلك سوف نتجول عبر تلك الآيات التي بينت لنا جانباً كبيراً من ملامح شخصية إبراهيم الأخلاقية، وهي سياحة قد لا تقف عند الحد المطلوب، إلَّا أن الباحث سيسعى لبيان الصورة قدر المستطاع، ومن الله العون والتوفيق.

---

(١) القصص القرآني، تحقيق: د. فاضل عباس، ط٢، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م (١٣).

(٢) سورة (البقرة، آل عمران، النساء، الأنعام، التوبة، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، مريم، الأنبياء، الحج، الشعراء، العنكبوت، الصافات، ص، الشورى، الزخرف، الذاريات، الممتحنة، الأعلى).

١ـ الصديقية

من الأوصاف التي وصف القرآن الكريم إبراهيم الخليل بها وصف الصديقية، والحقيقة إن لهٰذا الوصف المشتق عن الصدق ضرورة لابد منها في حياة الأنبياء، حيث يذكر العلماء في معرض الحديث عن الشروط التي لابد منها في الأنبياء، شرط الصدق[١] لما في ذٰلك الشرط من أهمية في حياة المبلغين من الأنبياء والرسل لكونه الدعامة التي ينتج عنها الثقة الكاملة من قبل النَّاس في ذٰلك النبي، ولقد كان النبي محمد ﷺ موصوف بذٰلك قبل أن يبعث حتى نعته قومه بالصادق الأمين[٢]، وهو الذي أكد على الصدق ﷺ بقوله: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال العبد يصدق ويصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[٣].

والصدق في عرف أهل اللغة والشرع: نقيض الكذب، صدق يصدق، صدقاً، ويقال: صدقت القوم: أي قلت لهم صدقاً[٤]، وفي معنى الصديقية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾[٥].

لأهل التفسير قولان:

الأول: أنَّه مبالغة في كونه صادقاً وهو الذي يكون عادته الصدق؛ لأن هٰذا البناء ينبئ عن ذٰلك، يقال: رجل خميّر وسكّير للولع بهٰذه الأفعال، والعياذ بالله.

الثاني: أنَّه الذي يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهوراً به[٦].

والذي يبدو لي في هٰذا المقام بأن الصديق هو الذي يجمع بين الأمرين،

---

(١) العقائد الإسلاميَّة للسيد سابق، مكتبة التحرير، بغداد (١٨٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (١/ ١٩٧).
(٣) البخاري بشرح الفتح (١٠/ ٤١٧)؛ مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٥٩)؛ الترمذي بشرح التحفة (٩/ ١٠٧).
(٤) انظر: لسان العرب، مادة (صدق).
(٥) سورة مريم: الآية (٤١).
(٦) انظر: تفسير الرازي (٢١/ ٢٢٣).

كونه صادقاً في كل أحواله وزيادة عليه يبالغ بالتصديق بشرع الله ويصدقه؛ فلقد كان أبو بكر صادقاً شأنه في ذٰلك شأن كل الصحابة إلَّا أنَّه كان يصدق النبي في كل ما يقوله دون أن يتحرى من الأمور ويعرضها على عقله كما حصل في الإسراء والمعراج والتي بسببها سمى النبي أبا بكر بالصديق[1]، والغرض من وصفه بالصديقية هو تنبيه العرب إلى فضل أبيهم إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنَّه إمام الحنفاء، وقد جاء بالتصديق الصافي الذي دعاهم إليه خاتم الأنبياء والمرسلين.

فهٰذه ميزة المسلّم الملبي لكل أوامر الله ولقد كان الخليل إبراهيم جامعا للأمرين معا، إذا ما علمنا بأن كل الصدق صفة لكل الأنبياء فما هو وجه الإشارة إلى صديقية سيدنا إبراهيم في أكثر من موضع؟

الذي يبدو لي أن ذٰلك يعود إلى التصديق والتسليم الكاملين اللذين اختير من خلالهما سيدنا إبراهيم وهما[2]:

- أن الله أمره أن يذهب بزوجته وولده إلى أرض جرداء لا ينبت فيها زرع ولا ماء ولا عين فيتركهما هناك؛ فأذعن لأمر الله دون استفسار أو سؤال.
- **الأمر الآخر**: أن سلّم واستسلم لأمر الله حينما رأى في المنام أن يذبح ولده الذي جاءه بعد مرحلة من العمر عتياً فانقاد لأمر الله دون أن ينازع أو يجادل وهو تصديق لا صدق فوقه.

وفي سياق الحديث عن هٰذه المنزلة التي وصف الله تعالى بها الخليل إبراهيم عليه السلام يجدر الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق ببعض الأجوبة التي تبدو في الظاهر أنها من قبيل الكذب والتي أوجزها النبي ﷺ بقوله: «ما كذب إبراهيم إلَّا ثلاث كذبات، قوله: إني سقيم، وقوله: فعله كبيرهم هٰذا، وقوله لسارة: إنها اختي»[3].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (١/ ٣٩٩).
(٢) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٤٥ - ١٤٨).
(٣) صحيح مسلم (١٥/ ١٢٣).

وأرى أن العلماء قد تكلفوا كثيراً[١] في تأويل ما سماه النبي ﷺ كذباً في الحديث الصحيح، ولعل ذٰلك يعود إلى الشرط الذي يقول بأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكذب في حال من الأحوال، وفي هٰذا المقام نشير إلى أمور مهمة تتعلق بهٰذه المسألة منها:

١- أن النبي ﷺ أطلق الكذب في الحديث على من يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[٢]، وأمَّا الأمور التي وردت عن سيدنا إبراهيم ولم تكن من هٰذا القبيل لأنَّه لم يخطط للكذب أو يصرّ عليه حاشاه عليه السلام.

٢- إن الكاذب من يكون في أغلب أحواله كاذباً ولا يصدق إلَّا عند المصلحة، والأنبياء ومنهم الخليل على نقيض ذٰلك تماماً.

٣- إن النبي ﷺ قد رخص الكذب في ثلاثة مواطن: في الحرب على العدو، ومن أجل إصلاح ذات البين، والكذب على الزوجة[٣].

والملاحظ لهٰذه الأسباب يجدها مما يترتب عليه مصالح الدين ومفاسد تدرأ، فإذا كان الكذب من أجل إصلاح ذات البين أو على الزوجة لأمر دنيوي يجوز درء المفاسد، فالكذب على الطواغيت من أجل إلزام النَّاس بالحق كما في قضية الأصنام أو قضية الأخوة على ذٰلك الطاغوت هي من باب أولى ثم إن ذٰلك قد لا يكون من الكذب إلَّا من باب القاعدة التي تقول حسنات الأبرار سيئات المقربين كون سيدنا إبراهيم خليل الله فتكون هٰذه الأجوبة من باب التورية المجازية التي استخدمها النبي ﷺ في الهجرة حينما سأله بعضهم عن نسبه فقال: إنه من ماء[٤] يقصد خلقه، وهم فهموا أنَّه من قبيلة ماء، وما كان للنبي ﷺ أن يجيب بهٰذا الجواب لولا علمه بما يترتب من خطر على جوابه الحق.

---

(١) يراجع ما قاله العلماء من أجوبة كتاب عصمة الأنبياء للرازي، بغداد (٣٩ - ٤٢).
(٢) صحيح البخاري مع الفتح (١٠/ ٤١٧)؛ صحيح مسلم (١٦/ ١٥٩)؛ الترمذي (٩/ ١٠٧).
(٣) صحيح مسلم (١٦/ ١٥٧)؛ الترمذي (٦/ ١٩).
(٤) السيرة النبويَّة (٢/ ٦١٦).

وحينئذ يمكننا القول بأن الخليل لم يقصد الكذب بذاته من حيث كونه كذبا وإنما أراد تحقيق المصالح المترتبة على جوابه، وهٰذا ما حدا بالقرآن الكريم أن يؤكد على وصفه بالصديقية أي المبالغة في الصدق دفعاً لما قد يترتب من الوهم في أذهان بعض الناس، والله تعالى أعلم.

٢ـ الحلم

من الصفات التي وصف القرآن الكريم بها سيدنا إبراهيم صفة الحلم المقترنة في موضعين مع الأواهية.. حيث قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[١]، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[٢].

ولعل هٰذا الترابط في ذكره هٰذه الأوصاف مغزى نتعرض لبيانه فيما بعد، إذ أننا سنحاول إلقاء الضوء على معنى الحلم في اللغة والشرع، ومن الله العون والتوفيق.

تعريف الحلم في اللغة:

«**الحلم لغة**: من حَلُم حلماً، بمعنى: تأنى وسكن وضبط نفسه، وحلمّه تحليماً: جعله حليماً. والحليم في صفة الله عزَّ وجلَّ معناه الصبور، وقال: معناه أنَّه الذي لا يستخفه عصيان العصاة ولا يستفزه الغضب عليهم ولكنه جعل كل شيء مقداراً فهو منته إليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[٣].

قال الأزهري: جاء في التفسير أنَّه كناية عن أنهم قالوا: إنك لأنت السفيه الجاهل، وقيل أنهم قالوه على جهة الاستهزاء، قال ابن عرفة: هٰذا أشد سباب العرب أن يقول الرجل لصاحبه إذا استجهله: يا حليم، أي أنت عند نفسك حليم[٤] وعند النَّاس سفيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[٥]» على سبيل الاستهزاء والإهانة.

---

(١) سورة التوبة: الآية (١١٤).
(٢) سورة هود: الآية (٧٥).
(٣) سورة هود: الآية (٨٧).
(٤) لسان العرب، مادة (حلم).
(٥) سورة الدخان: الآية (٤٩).

وأما في الاصطلاح فيعرفه العلماء بأنَّه (حالة يظهر معها الوقار والثبات عند الأسباب المحركة للغضب أو الباعثة على التعجل في العقوبة، وقد يعرفه البعض بأنَّه حبس النفس حتى تخضع لسلطان العقل، تطمئن لما يأمرها به)[١].

وفي الحقيقة إن التعريف اللغوي والشرعي يكشفان لنا عن تعلق الحلم بأمر واحد هو العقل، وهٰذا ما يكشفه لنا القرآن الكريم، فقد أطلق الكلمة على المعنيين اللغوي والشرعي، فعن معنى العقل بقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٢]، فالأحلام هنا بمعنى العقول، وفي الحديث: «ليليني أولو الأحلام منكم والنهى»[٣]، أي: أصحاب العقول، وقد استعمل القرآن الحلم بمعنى ضبط النفس في أغلب المواطن، والحلم بالنسبة لله تعالى هو الإمهال بتأخير العقوبة، قال ابن الأثير: «إنه الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، يؤيد هٰذا ما جاء في التنزيل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٤]»[٥].

مما سبق، تبين لنا أن الحلم هو ضبط النفس وكسر شهوة الغضب مع وجود الأسباب المحركة للغضب، وعن حلم سيدنا إبراهيم قالوا: هو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى، وقيل: الذي لم ينصر أحداً إلَّا الله، وقيل: هو الذي لم يعاقب أحداً إلَّا في سبيل الله، وقد صرح ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه، أنَّه قال: (كان من حلمه أنَّه إن آذاه رجل من قومه قال له: هداك الله)[٦]، وقد نقل لنا القرآن الكريم بعض المشاهد والمواقف التي تجسد هٰذا الخلق في شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومن تلك المواقف:

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن، للشرباصي (١/ ١٨٢).
(٢) سورة الطور: الآية (٣٢).
(٣) رواه مسلم (٤/ ١٥٤)؛ الترمذي (٢/ ١٨)؛ النسائي (٢/ ٨٧).
(٤) سورة يونس: الآية (١١).
(٥) النهاية في غريب الحديث (١/ ٤٣٣ - ٤٣٤).
(٦) تفسير القرطبي (٤/ ١٧٥).

١- موقفه مع والده في دعوته إلى الله، فالقرآن قد نقل لنا الحوار بين قسوة الوالد وجفائه وبين حدان الابن وحلمه. فالمفروض عرفاً أن الحنان والرحمة من صفات الآباء تجاه الأبناء، وبالرغم من تبدل الموقف وشدة الجفاء الذي صدر عن الوالد بقوله الذي حكاه القرآن: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[1]؛ فقد كان الجواب في قمة الحلم من وجهين، الأول: قوله عليه السلام الذي حكاه القرآن ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾[2]، هو جواب في غاية الأدب والحلم لمن طلب منه الهجر وهُدد بالرجم، والثاني: الدعاء لوالده وهٰذه مقابلة الإساءة بالدعاء والاستغفار ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾، وهي سمة لا يستطيعها إلَّا من وصفه الله تعالى بالحلم.

٢- موقفه مع قومه ومع قوم لوط: فلقد ناقش عليه السلام قومه في إثبات بطلان عبادة الكواكب بهدوء ورقة وبأسلوب مقنع، ولما أعرض قومه عن دعوة الحق لم يفارقه حلمه فيدعو عليهم بالهلاك، بل لم يفعل ذٰلك حتى حين ألقوه في النَّار المحرقة، وما أشده وأقساه من تعذيب! وكذٰلك كان حاله الشريف وطبعه المنيف مع قوم آخرين غير قومه، إلَّا وهم قوم لوط، الذين بلغوا من العناد والعصيان والانهيار الخلقي مبلغاً عظيما استحقوا به إنزال العقاب الرباني العادل، بعد أن حقت عليهم كلمة العذاب وأصبح إصلاحهم عملًا غير مُجدٍ، فأرسلت الملائكة بالقصاص، ومروا على إبراهيم عليه السلام، ولما كشفوا له عن حقيقة ما أرسلوا به ظهرت طبيعته السمحة، وبدا حلمه ذو السناء، فقام يجادل الملائكة عسى عاص يتوب أو مذنب يؤوب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[3].

---

(١) سورة مريم: الآية (٤٦).
(٢) سورة مريم: الآية (٤٧)، وتمامها: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.
(٣) سورة هود: الآيات (٧٤ - ٧٦).

٣ ـ الأواه

لقد وردت في القرآن الكريم آيتان تصفان سيدنا إبراهيم بالأواهية، الأولى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[١]، والثانية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[٢]. وسوف نتعرف على معنى هٰذا الوصف في الآيتين:

الأواه: قال أهل اللغة[٣]: هو كثير الحزن، وقيل: الدعّاء إلى الخير والفقيه الرحيم، وقيل: المتضرع والمسبح، وقيل: الكثير الثناء، وغير ذٰلك.

وقريباً من هٰذه الأقوال، فسر العلماء الاصطلاح هٰذه الكلمة فقالوا: أنَّه الذي إذا ذكر الخطايا استغفرها، وقيل الكثير التأوه من الذنوب[٤] من فرط الرحمة ورقة القلب غير إنا نرى في ظاهر هٰذين القولين شيئاً من النقد، إذ أن المعلوم من حال الأنبياء جميعا على رأسهم سيدنا إبراهيم، أنهم صلوات الله وسلامه عليهم أبعد النَّاس عن الذنوب، بل وعن التفكير فيها أو ذكر خطاياها، فالأولى من المعاني اختيار المناسب منها لمقام النبوة.

وقال بعضهم: إن الأواه هو معلم الخير، وقال آخرون: الشفيق، وبذٰلك سمي أبو بكر لشفقته ورأفته، وهناك أقوال أخرى قريبة من هٰذا المعنى[٥]، ويرى الإمام الطبري أن أولى هٰذه الأقوال هو الدعّاء، وذٰلك لأنَّه وعد أباه أن يستغفر له، فلمَّا تبين له أنَّه عدو لله تبرأ منه، أي ترك الدعاء له، وذٰلك مناسب لسياق الآية[٦]، ويرى أيضاً أن جميع هٰذه المعاني متقاربة من بعضها البعض؛ لأنها تدل على العبادة والخشوع في الدعاء[٧].

---

(١) سورة التوبة: الآية (١١٤).

(٢) سورة هود: الآية (٧٦).

(٣) انظر: اللسان، مادة (أواه).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٥٢٣ - ٥٣٦) وقد عد أحد عشر قولا في معنى الأواه؛ انظر: تفسير القرطبي (٤/ ١٧٥) وقد زاد خمسة أقوال على ما ذكره الطبري؛ وانظر أيضاً: ابن كثير (م٢/ ٣٧٧) وقد أتى بقولين آخرين زيادة على ما ذكر.

(٥) الهامش السابق.

(٦) انظر: تفسير الطبري، طبعة محققة (١٤/ ٥٣٢).

(٧) نفس المصدر (١٤/ ٥٣٦).

وهناك قول للأستاذ محمد المختار السَّلامي[١] نذكره بنصّه لجميل معناه: إن الأواه هو رقيق القلب الرؤوف غير القاسي؛ لأن التأوه أصلًا ما ينفس به المتوجع من شدة ما يحس به من ألم، فإذا أطلق لفظ التأوه على من هو معافى من الآلام الحسية، فينقلب اللفظ للدلالة على التوجع مما يصيب غيره من مكروه وعذاب؛ فتكون هٰذه الصفة من صفات الشعور بالناس والشفقة بهم، والتألم بآلامهم حباً بهم ورحمة. وهٰذا المعنى يتأكد في موقفه لما علم بما سيصيب قوم لوط من أذىً وعذاب، فأخذ يتوجه إلى الله معتذراً عنهم طالباً إمهالهم؛ وقد نقل القرآن الكريم هٰذا الموقف حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۞ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[٢]، والذي نراه راجحا هو ما ذهب إليه الإمام الطبري من أن الأواه هو الدعّاء وذٰلك لشمول معناه، والله أعلم.

٤ـ الإنابة

من الأوصاف المتلاحقة التي وصف القرآن بها الخليل الإنابة، وقد جاء هٰذا الوصف ملاصقاً لوصفين آخرين في آية واحدة تحدثت عن حلم وأواهية إبراهيم عليه السلام جنباً إلى جنب مع الإنابة، أمَّا عن الوصفين الحلم والأواهية، فقد وردا مكررين مرتين لكنَّه في المرة الثانية جاء بإضافة وصف الإنابة. وقد تحدثنا عن وصفي الحلم والأواهية ويبقى الحديث عن الإنابة، إلَّا أنني أجدني مضطراً للتأمل في رحاب هٰذه الآية فقد استوقفني جمع الآية لهٰذه الصفات الإبراهيميَّة مرة واحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[٣] ولدى النظر والبحث في رحاب الآية يمكن الإشارة إلى الأمور الآتية:

أولًا: إن هٰذه الأوصاف ثناء من الله تعالى لسيدنا إبراهيم، سببه جداله لربه في دفع العذاب عن قوم لوط وهو جدال مبني على الشفقة والرحمة التي

(١) مفتي الجمهورية التونسية، مقاله في مجلة الهداية، العدد (١)، سنة ١٤١٧هـ.
(٢) سورة هود: الآيات (٧٤- ٧٥).
(٣) سورة هود: الآية (٧٦).

يتمتع بها الأنبياء بشكل عام وخصوصاً من نحن بصدد الحديث عنه، وهٰذه الرحمة هي التي دفعته للجدل عن قومه لما يتمتع به من صفات الحلم والخوف والرجوع إلى الله، فلم يكن من طبع إبراهيم الجدل أو المعارضة لأمر إلهي وهو المنيب إلى الله المستسلم له بكل شيء وذٰلك ما اتضح لنا من خلال شخصيته ودعوته.

ثانياً: إن القرآن الكريم وهو يتحدث عن الإنابة يكشف لنا أنواعاً من النَّاس يختلف بعضهم عن البعض في إنابته، من ذٰلك:

- **إنابة الغافل**: وأعني به من لا يرجع إلى ربه إلَّا في الشدائد وفيه يقول المولى عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾[1].

- **إنابة العاقل**: وأعني به من تعلق قلبه بربه في كل شيء فهو يرجع إليه ويعتمد عليه ويرجوه في كل أحواله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[2]؛ فإن الإنابة صفة لإبراهيم لا تغادره في السَّراء والضَّراء.

وحتى لا يختلط الأمر على النَّاس يكشف لنا القرآن الكريم أن إبراهيم ليس ممن ينيب عند الضراء، بل هو في كل أوقاته أواه حليم منيب، وإنابته ليست كإنابة الآخرين. وبعد هٰذا العرض الموجز في ثنايا الآية التي وصفت إبراهيم الخليل بالإنابة يجدر بنا التعريف بهٰذه الكلمة عند أهل اللغة وأهل الشرع:

التعريف اللغوي.. الإنابة: هي الرجوع إلى الله بالتوبة، وفي التنزيل ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾[3]، أي توبوا إليه وارجعوا، وناب فلان إلى الله تعالى وأناب إليه إنابة، فهو منيب، أقبل وتاب ورجع إلى الطاعة، وقيل: ناب لزم الطاعة، وأناب: تاب ورجع[4].

---

(١) سورة الزمر: الآية (٨).
(٢) سورة الزمر: الآية (١٧).
(٣) سورة الزمر: الآية (٥٤).
(٤) انظر: لسان العرب، مادة نوب (١/ ٧٧٥).

التعريف الشرعي: ولدى مراجعة الكتب الشرعية لم أجد من تجاوز على معنى الرجوع إلى الله إلَّا بقدر بيان معاني ذٰلك الرجوع.. من هو (الإنابة في اللغة: الرجوع، هي ها هنا الرجوع إلى الحق، وهي ثلاثة أشياء الرجوع إلى الحق إصلاحاً، كما رجع إليه اعتذاراً والرجوع إليه وفاءً كما رجع إليه عهداً والرجوع إليه حالًا، كما رجع إليه إنابة)[١]، ومعناه: (أي أن الإنابة تقتضي اعتذاراً عن الهفوة إن وقعت، وإصلاحاً لها بالحسنة، ومحواً له بالطاعة، وتقتضي الوفاء التطبيقي للعهد الذي أخذه المنيب على نفسه بأن يلتزم ويستقيم وتقتضي أن تكون أحوال الإنسان وتصرفاته وسلوكه عنواناً عملياً لخلق الإنابة)[٢].

يقول الشيخ الشرباصي: أن المنيب هو: (الذي يسارع إلى طاعة الله ومواطن مرضاته ويرجع إليه في كل وقت، ويبذل طاقته ليلتزم طاعته)[٣].

وحكم الإنابة في الشرع: الوجوب؛ فهي فرض عيني على كل مسلم والدليل على ذٰلك الكتاب، وإذا كانت الإنابة واجباً وفرضاً عينياً كان تركها حراماً؛ لأن ترك الواجب حرام وإليكم الدليل على وجوب الإنابة، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[٤] ففي هٰذه الآية الكريمة خطاب الله تعالى إلى الخلق كافة بصيغة الأمر المجرد الحازم التي تدل على وجوب الإنابة والرجوع إلى الله تعالى والاستسلام له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح وترك معصيته ويستنبط وجوب التوبة والإنابة في الآية من شيئين:

الأول: صيغة الأمر المجردة وهي (أنيبوا) أي ارجعوا إلى الله تعالى بالطاعة، وهي أمر بالتوبة إلى الله والرجوع إليه حيث لم توجد في الآية قرينة تصرفها عن الأمر إلى الغرب أو الإباحة.

---

(١) منازل السائرين للشيخ عبد الله الأنصاري، ط٢، بغداد، الشرق الجديد (١٧).
(٢) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي (١/ ٢٥٠).
(٣) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي (١/ ٢٤٩).
(٤) سورة الزمر: الآية (٥٤).

الثاني: ترتيب العقوبة على عدم التوبة بقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ من قبل حلول نقمته تعالى بكم ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه.

فلإنابة عباده ينبغي أن يلجأ إليها كل مسلم سواء أذنب أم لم يذنب هٰذا وقد نقل لنا القرآن الكريم جانباً من إنابة بعض الأنبياء في بعض الموقف من ذٰلك ما ورد بشان سيدنا سليمان حيث جاء عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[١]، وعن سيدنا داود عليه السلام أنَّه قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[٢]. وينقل القرآن الكريم عن الأنبياء إنابتهم إلى الله دائماً وأبداً، فعن سيدنا شعيب قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣].

ويأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يبلغ عباده قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٤]، أي عليه توكلت واعتمدت في مجامع الأمور وإليه أرجع في كل الشؤون[٥].

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بمعنى الإنابة بالنسبة للأنبياء وغيرهم، فلعل البعض يعتقد بأن الإنابة رجوع إلى الله بسبب العمل أو المعصية وذٰلك قد يكون مع عموم النَّاس لا مع المعصومين من الأنبياء إذاً فما هو معنى الرجوع المنيب الصادر من الأنبياء والذي عبرت عنه الآيات القرآنية؟ يقول ابن القيم: (من نزل في منزل التوبة وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام فإن التوبة الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها، فإذا استقرت قدمه في منزل التوبة

---

(١) سورة ص: الآية (٣٤).
(٢) سورة ص: الآية (٢٤).
(٣) سورة هود: الآية (٨٨).
(٤) سورة الشورى: الآية (١٠).
(٥) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي (١/ ٢٥٢).

نزل بعده منزل الإنابة)[١].

وفي سياق الحديث عن إنابة إبراهيم يمكن الإشارة إلى بعض المواقف التي سجلها القرآن الكريم والتي تشهد للخليل على إنابته:

أولًا: موقفه مع والده.. فحينما دعا الخليل والده إلى الإيمان وأصر الأب على الكفر نجد أن الخليل رجع إلى الله مرتين.. المرة الأولى طلب المغفرة له، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[٢]، والمرة الثانية عند يقينه بكفر أبيه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

ثانياً: اعتزال الكافرين.. فحينما أصر رؤوس الكفر على فسقهم وفجورهم وعبادتهم لغير الله أناب إلى الله راجعاً وهو يقول: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[٤].

ثالثاً: موقف الهجرة.. فحينما طلب منه ترك العراق والهجرة إلى فلسطين لم يلبث أن لبى الأمر ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۞ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٥].

٥ـ الكرم

من الصفات التي تحدث عنها القرآن الكريم مادحاً سيدنا إبراهيم الخليل بها، صفة الكرم.

والكرم من الأخلاق التي كان العرب يتفاخرون بها قديماً وحديثاً، بل إن القرآن الكريم سجل هٰذا التفاخر فيما بين العرب بكرم الآباء والأجداد، حينما كان العرب يتفاخرون بعد الإفاضة من عرفات، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية محمد بن أبي أيوب (ت٧٥١هـ)، طبعة دار الحديث، القاهرة (١/ ٤٦٦).
(٢) سورة مريم: الآية (٤٧).
(٣) سورة التوبة: الآية (١١٤).
(٤) سورة مريم: الآية (٤٨).
(٥) سورة الصافات: الآيات (٩٩ - ١٠٠).

مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[١]، بل إن العرب كانوا يتفاخرون حتى بالأموات من أهل الكرم، وإليه أشار القرآن الكريم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾[٢]؛ لذلك كان الكرم من أهم الأوصاف والسمات التي تميز الإنسان وترشحه لنيل رتبة الصدارة عند القوم وهٰذا المعنى أحد احتمالات هٰذه الآية الكريمة، و(الكريم) من أسماء إلٰه تعالى، وهو الجواد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، وهو الكريم المطلق[٣] وفي تعريفه قالوا: الكريم اسم جامع لكل ما يحمد، فالله عزَّ وجلَّ كريم حميد الفعال ورب العرش العظيم، قال ابن سيده: الكرم نقيض اللؤم، يكون في الرجل بنفسه وإن يكن له إياد[٤]، والكرم عند بعض النَّاس فطرة وسجية، وعند البعض الآخر خلق يتحلى به ويتجمل به ويتكفله. وإضافة إلى ذٰلك فإن القرآن أعطى للكرم وصفاً آخر من خلال التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٥].

وأرى أن هٰذا النبي الذي ذكر القرآن الكريم له هٰذه الخصلة قد أحاط بمعاني الكرم عرفاً وشرعاً؛ فهو كريم بسجيته وأخلاقه، ويحكى عنه عليه السلام أنَّه ما كان يستسيغ أكل الطعام لوحده إلَّا أن يجد شخصاً آخر يأكل معه، وقد جعل نبينا محمد ﷺ الكرم من صفات المؤمنين، حيث يقول ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[٦]. وفي إطار حديث القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم في كرمه، نصغي أولًا إلى ما نقله القرآن الكريم بصدد هٰذا الشأن، قال

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٠٠)، وفي تفسيرها يذكر أن ابن كثير عن ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في المواسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير أفعال آبائهم، فأنزل الله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ...﴾ الآية. ابن كثير (١/ ٢٣١).

(٢) سورة التكاثر: الآيات (١- ٢) وفي تفسيرها يذكر ابن كثير: أنهم كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان ونحن أعد من بني فلان ويتفاخرون: هل فيكم مثل فلان؟ ابن كثير (٤/ ٥٤٨).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن كثير (٤/ ١٦٦).

(٤) انظر: لسان العرب (١٢/ ٥١٠).

(٥) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٦) صحيح البخاري مع الفتح (١٠/ ٣٦٥).

تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[1]، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[2]، من هٰذه الآيات يمكن الإشارة إلى الأمور التالية:

١- إن الوفد الضيف ألقوا التحية بقولهم (سلاماً) أي: نسلم عليك سلاماً، أو هو حكاية لمعنى ما قالوا: لا حكاية للفظهم، وقيل معناه: ذكروا سلاماً، أمَّا تحيته لهم فإنها كانت بأحسن من تحيتهم لأنها بجملة أسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾، وأصل معنى السَّلام: السَّلامة مِمَّا يضر[3].

٢- سرعة الإكرام الذي قام به الخليل، وذٰلك قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي فما أبطأ وما تأخر مجيئه، وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ﴾ والروغان يدل على السرعة والرواح المخفي، وفي هٰذا الإخفاء أدب للضيافة، وذٰلك أن المضيف إذا أحضر شيئاً ينبغي أن يخفيه عن الضيف حتى لا يمنعه من المجيء به[4].

٣- نوعية الطعام: وهو العجل، وإنما جاء به لأن أكثر ماله كان من البقر وهو أطيب ما فيها كما وأنه عليه السلام اختار منها السمين منها مبالغة في الإكرام، وجاء به مشوياً.

٤- قيامه عليه السلام بخدمة ضيوفه بنفسه وذٰلك قوله تعالى: ﴿فَجَآءَ﴾[5] وأيضاً ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾.

---

(١) سورة هود: الآيات (٦٩ - ٧٠).
(٢) سورة الذاريات: الآيات (٢٤ - ٢٨).
(٣) انظر: الآلوسي (١٢/ ٩٣ - ٩٤).
(٤) انظر: الرازي (٢٨/ ٢١٣).
(٥) الآلوسي (م٢، ١٢/ ٩٤).

٥- كمية الطعام: في مجيئه بالعجل كله - مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه[١] - دليل على أنَّه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر مما يأكل.

٦- تشير الآيات إلى طبيعة هٰذه العائلة الميمونة، إذ أشارت إلى كرم أهل البيت جميعاً، فالطعام الذي قدم للضيوف أعده أهل بيت الخليل عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾[٢].

٧- ومما يضاف في هٰذا الباب ما ذكره المفسرون، أنه عليه السلام: (كان لا ينزل به أحد إلَّا أضافه، وكان لقصره أربعة أبواب، من كل جهة باب لئلا يفوته أحد، ولذا كان يكنى أبا الضيفان)[٣].

٦- إبراهيم أُمَّة

ومن الأوصاف التي تبين لنا المكانة الخاصة عند الله لإبراهيم، أن الله تعالى جعل من مكانة هٰذا النبي أنَّه أمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٤].

ولا أريد هنا أن أجزم القول أن المراد من الأمة أنَّه يحشر أمة وحده لأن للعلماء من أهل التفسير في هٰذا الشأن مقالات نتعرف عليها كما هي في كتب التفسير، لكن قبل الحديث عن ذٰلك المعنى في كتب التفسير نتعرف على معنى الأمة في اللغة، من أجل بيان المعنى بشكل مفصل، يقول أهل اللغة[٥]: الأمة: هو القرن من النَّاس وقد مضت أمة أي قرون، وأمة كل شيء من أرسل إليهم من كافر ومؤمن، وكل قوم نسبوا إلى نبي وأضيفوا إليه ممن آمن أو كفر، وكل جيل من الناس، وكل جنس من الحيوان أمة، والأمة الجيل والجنس من كل حي، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾[٦].

---

(١) زاد المسير (٨/ ٣٦).
(٢) الآلوسي (م٦، ١٢/ ٩٤).
(٣) الآلوسي (م٧، ١٣/ ٦٠).
(٤) سورة النحل: الآيات (١٢٠ - ١٢١).
(٥) انظر: اللسان، مادة (أمم).
(٦) سورة الأنعام: الآية (٣٨).

أمَّا في الاصطلاح، فقد ورد عن عبد الله بن مسعود أن الأمة هو الذي يعلم النَّاس الخير[١]، وفي معنى وصف القرآن لسيدنا إبراهيم بهٰذا الوصف بعض المقالات التي وردت في كتب التفسير والتي يمكن إجمالها بما يأتي[٢].

أولًا: إن المراد من الأمة إن كان جيلا أو قرناً بمفرده لكماله في صفات الخير ومنه قول الشاعر:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ثانياً: ما قاله مجاهد، أنَّه كان أمة لأنَّه لم يكن في الأرض من يعبد الله غيره وكل النَّاس على الكفر.

ثالثاً: أنَّه أمة فعله، بمعنى مفعول كالرحلة والبغية، فالأمة هو الذي يؤتم به ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٣].

رابعاً: أنَّه رمز لأمة التوحيد لأنه عليه السلام هو السبب الذي لأجله جعلته أمته تمتاز عمن سواها بالتوحيد والدين والحق ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماه الله تعالى بالأمة إطلاقا الاسم المسبب على السبب.

والذي أراه أن إبراهيم كان أمة لأنَّه قد باشر كل تلك الأفعال من تعليما لخير للنَّاس وغربته في ديار الكفر موحداً، يدل على الشطر الأول ما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه وصف معاذ بن جبل بأنَّه كان أمة قانتاً حنيفاً وفسر الأمة بقوله: (الأمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله وكذٰلك كان معاذ معلماً للخير مطيعاً لله ورسوله)[٤].

ويدلل الشطر الثاني ما ورد أن رسول الله ﷺ قال في زيد بن عمرو نفيل:

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/ ت١/ ١٠٠)؛ الأساس في التفسير (٦/ ٣٠٠٧)؛ صفوة التفاسير (٢/ ١٤٨).

(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٠/ ١٣٤)؛ الطبري طبعة غير محققة (م٨، ١٤/ ١٩١)؛ زاد المسير (٤/ ٥٠٣).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

(٤) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (ق١، ٢/ ١٠٠).

«يبعثه الله أمة وحده» حيث كان يتطلب دين إبراهيم ويوحد الله ويعيب على قريش ذبائحهم للأصنام إلى غير ذٰلك؛ فهو قد خلص نفسه من جهنم بتوحيده واجتنابه عبادة الأصنام[١].

وبذٰلك سن لنا أن الخصال التي رفعت من منازل هؤلاء الأشخاص هي عينها التي اتصف بها الخليل إبراهيم وهي بمجموعها التي جعلت القرآن يصفه بهٰذا الوصف العظيم.

وختاماً أقول: إن الأمة استقلال بمنهج أو انفراد بدستور أو مواقف ثبات وبطوله ولعل الأمة خلق وأخلاق وعلم وشجاعة وإيمان وغير هٰذه من الصفات، وقد تستقل الأمة بواحدة من هٰذه الصفات أو أكثر وكذٰلك المرء لكن لن تجد رجلًا يجمع كل تلك الصفات إلَّا في النادر القليل من بين من يختارهم الله وأن الخليل منهم فاستحق أن يكون أمة بجدارة ويقين فهو إمام وقدوة جامع لكل خصال الخير ولذٰلك اختاره الله خليلًا، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[٢].

٧ـ الوفاء

من الأوصاف التي وصف القرآن الكريم بها الخليل إبراهيم عليه السلام: الوفاء، وذٰلك عند قوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[٣].

والوفاء صفة قرآنية ورد ذكرها في مواضع كثيرة من آي القرآن الكريم، فتارة تذكر في معرض الثناء على الأنبياء كقوله تعالى في وصف سيدنا يوسف: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[٤]، وتارة تذكر في بيان أوصاف المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٥] وكما في قوله تعالى:

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي (ق١، ١/ ٢٠٥).
(٢) سورة النِّساء: الآية (١٢٥).
(٣) سورة النجم: الآية (٣٧).
(٤) سورة يوسف: الآية (٥٩).
(٥) سورة الأحزاب: الآية (٢٣).

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾[١] أي يوفون العهود ولا يخلفون الوعود.

وللوفاء أهمية عظيمة في الشرائع كافة ولعل ذٰلك يعود إلى كون هٰذه الصفة من الصفات المهمة التي تميز معظم العرب والفرد كمسلم، وهٰذا ما حدا بالعرب أن يتفاخروا به في أشعارهم وأن يعظمون في أفعالهم حتى جاء الإسلام ليدعم فيهم هٰذه الخصلة الحميدة، لذٰلك سوف نتعرف على معنى الوفاء في كلام العرب ثم نردفه ببيان معناه في الشرع بإذن الله.

التعريف اللغوي: للوفاء معان متعددة في كلام العرب منها[٢]:

- (الالتزام بالعهد وعدم الغدر، لأن الوفاء ضد الغدر، يقال: وفى فلان بعهده وأوفى).
- إتمام الشيء، قال: ومن قال أوفى فمعناه أوفاني حقي، أي: أتمه ولم ينقص منه شيئاً.
- بيان الحق أخذاً وعطاءً.. قال: والوفي، الذي يعطي الحق ويأخذ الحق وفي حديث ابن أرقم: وفى أذنك وصدق الله حديثك[٣]؛ كأنَّه جعل أذنه في السماع كالضامنة بتصديق ما حكت، فلمَّا نزل القرآن في تحقيق ذٰلك الخير صارت الأذن كأنها وافية بضمانها خارجة من التهمة فيما أدته إلى اللسان.
- الصدق في الوعد من قولك وافاه قال: والموافاة أن توافي إنساناً في الميعاد ووافيته فيه ومنه قولك وافيت المكان إذا أتيته.
- التبليغ في قولك وفىّ: قال الفراء وفىّ أي بلغ وقيل هي أبلغ من قولك وفى لأن الذي امتحن به من أعظم المحن.

و أراني قد أطلت بعض الشيء في سرد المعاني اللغوية إلَّا أن ذٰلك له ما

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٧٧).

(٢) انظر: لسان العرب، مادة وفّى (١٥/ ٣٩٩).

(٣) صحيح البخاري (٨/ ٦٤٤ - ٦٤٨)؛ مسند أحمد (٣/ ٣٧٣)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٥/ ١٦٩).

يسوغه وهو تعدد الآراء الاجتهادية في بيان معاني الوفاء الذي وصف الله تعالى به سيدنا إبراهيم عليه السلام ولعل تلك المعاني اللغوية تساعدنا في كشف المراد من هٰذه الصفة وهي الفقرة التالية في تعريف الوفاء شرعاً.

التعريف الشرعي.. قد لا يتعدى المعنى الشرعي المعنى اللغوي في تعريف الوفاء لأنَّه إن لم يجمع تلك المعاني فهو واحد من مفرداته، وقد عرفه أهل السلوك بقولهم: (هو ملازمة طريق المواساة والمحافظة على عهود الخلطاء)[١]، والوفاء هو الالتزام بتنفيذ ما تعاهد عليه وحكمه الوجوب ودليله الكتاب والسنة، أمَّا الكتاب فآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[٢].

ووجه الدلالة:

جاء الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم أي: يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود وهو لفظ يشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وربه وبين الإنسان، قال ابن عباس: (العقود العهود وهي ما أحل الله وما حرم الله وما حرم وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام)[٣]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[٤]، وقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[٥].

وأمَّا السُّنَّة، فأحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «**المسلمون عند شروطهم**» فالمسلم إذا أبرم عقداً فيجب أن يحترمه، وإذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه ومن صفات المؤمن أن يكون عند كلمته التي قالها وفي إطار بيان تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ ذكر المفسرون في وفاء إبراهيم أموراً كثيرة نحملها بما يأتي[٦]:

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي (٢/ ١٩٤).

(٢) سورة المائدة: الآية (١).

(٣) انظر: صفوة التفاسير، أو سورة المائدة.

(٤) سورة البقرة: الآية (٤٠).

(٥) سورة الإسراء: الآية (٣٤).

(٦) انظر: الطبري طبعة غير محققة (م١٣، ٢٧/ ٧١ - ٧٣)؛ الكشاف (م٤/ ٣٣)؛ القرطبي (م٩، ١٧/ ٧٤)؛ التفسير بالمأثور للسيوطي (م٨/ ٢٦١ - ٢٦٢)؛ الخازن (م٤/ ١٩٩)؛ النسفي (م٣/ ١٧١٩).

أولًا: طاعته لربه بتبليغ الرسالة عموماً، وخصوصاً ما تعاهدته العرب في الجاهلية وهو أن يأخذوا الولي بجريرة غيره وهو ما ذكره القرآن مباشرة بعد قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، وهو المقصود من وفاء إبراهيم كونه قد بلغ به، قاله ابن عباس وقتادة وعكرمة وسعيد بن جبير والثوري.

ثانياً: قالوا: إن المراد من وفاء إبراهيم في الآية عزمه على تنفيذ ما رأى في المنام من ذبح ابنه، ويرى القرطبي أن في الآيات تقديم وتأخير وتقدير الكلام: أم لم ينبأ بما في صحف موسى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وبما في صحف ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ وكان القرطبي يريد القول أن تبليغ قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ من شأن سيدنا موسى وحينئذ فإن وفاء إبراهيم عليه السلام ينصرف إلى قصة الرؤيا: إلَّا أنَّه يمكن أن يرد عليه بما يأتي:

١- أن التقديم والتأخير قد يصار إليه إذا اقتضى ذٰلك كأن يكون هناك اضطراب فيه لا يستقيم المعنى إلَّا بتقدير الكلام، فإذا عدمت الحاجة للتقدير فلا يصار إليه. ولا أرى أن التقدير في هٰذا الموضع ضروري فلا داعي لصرف الآية عن معناها كون الخليل وفّى بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٢- ما المانع من أن يكون سيدنا إبراهيم نال رتبة الوفاء بكلا الأمرين: التبليغ بما أقر به في الآية وتصديقه للرؤيا.

٣- ولا يمنع أيضاً أن يشترك التبيان بتبليغ أمر واحد كهٰذا الذي يتعلق برفع الظلم عمن يعاقب بجريرة غيره.

ثالثاً: يرى أصحاب هٰذا القول أن المراد من الوفاء هو التبليغ بكل الشرائع وتحمل ما يترتب عليها من مشقة، فقالوا: إن الإسلام ثلاثون سهماً، عشرة في سورة التوبة: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ ...﴾[2] الآية، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ

(١) سورة النجم: الآيات (٣٧-٣٨).
(٢) سورة التوبة: الآية (١١١).

ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ...﴾[١]، وعشرة في المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ...﴾[٢]، وما ابتلي بها أحد ووفى إلَّا إبراهيم عليه السلام، ويحكى هٰذا القول عن ابن عباس ومجاهد ويرد عليه: أن هٰذا القول لا يختلف كثيراً عن الأول سوى بيان أسهم الإسلام وأنه قد بلغ بها وتحملها.

وأمَّا قولهم أنَّه ما من أحد ابتلي ووفّى فهو غير مُسلّم لأن هٰذا إن كان على مستوى عموم البشر فهناك الكثير ممن وفى بمثل هٰذه الأمور، وإن كان على مستوى الأنبياء والرسل فلم يثبت أن الله أرسل رسولًا أو نبياً برسالة فلم يفِ بها، إلَّا أن ذٰلك يمكن صرفه مجموعاً بحق البشر، فيقال: من النادر أن يتحمل إنسان كل هٰذه الالتزامات فيصبر.

رابعاً: ويرى آخرون أن وفاءه كان عن طريق مداومته على بعض العبادة كصلاته أربع ركعات أول النهار وهي رواية عن أبي أُمامة قال فيها: «**أتدرون بمَ وفّى إبراهيم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: وفى يومه أربع ركعات**».

خامساً: وقيل أنَّه كان يقول صباح كل يوم: (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون)، وهي رواية عن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**ألَا أخبركم لم سمى إبراهيم خليله الذي وفى؟ لأنَّه كان يقول كلَّما أصبح وأمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[٣] حتى ختم الآية**».

سادساً: ويرى آخرون أن إبراهيم لم يعهد إليه عهد إلَّا وفى به حتى قوله لأبيه لأستغفرن لك فقد طلب الاستغفار لأبيه.

سابعاً: إن الوفاء صفة عالية لإبراهيم فلم يطلب منه شيء إلَّا قام به والتزمه.

ثامناً: أنَّه قطع على نفسه أن لا يسأل مخلوقاً.

ويرى الطبري أن أولى هٰذه الأقوال هو قول من قال: بأن المراد من الوفاء

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٣٥).
(٢) سورة المؤمنون: الآية (١).
(٣) سورة الروم: الآية (١٧).

هو تبليغه بجميع الشرائع وما أمره الله به؛ لأن الله تعالى أخبر أن إبراهيم وفّى فيعم الخبر بوفائه بجميع ما طلب منه على العموم وهو ما يميل إليه الباحث ويمتازه، فإضافة إلى ما ذكره الطبري يمكن القول أن تلك الآراء الثمانية التي بينت معنى الوفاء ما هي إلَّا سرد لأجزاء ما قام به الخليل إبراهيم من أعمال وأقوال تتعلق بالوفاء يدل على ذٰلك لفظة وفى بالتشديد؛ لأن زيادة المبني تدل على زيادة المعنى كما يقول النحاة، إذ أن معناها يقتضي أن الخليل قد أدى ما عليه من التزامات وعهود كثيرة جعلته من أهل الوفاء وإلَّا فإنّ الالتزام بواحد من الأمور لا يرفع الإنسان إلى مستوى الوصف إلَّا بالتكرار والمداومة وهي ما أشارت إليه الآية، وبذٰلك استحق أن يكون قدوة يقتدى به في جميع أفعاله وأقواله وهو ما أكده القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

(١) سورة النحل: الآية (١٢٣).

الباب الثاني

نبوة إبراهيم عليه السلام

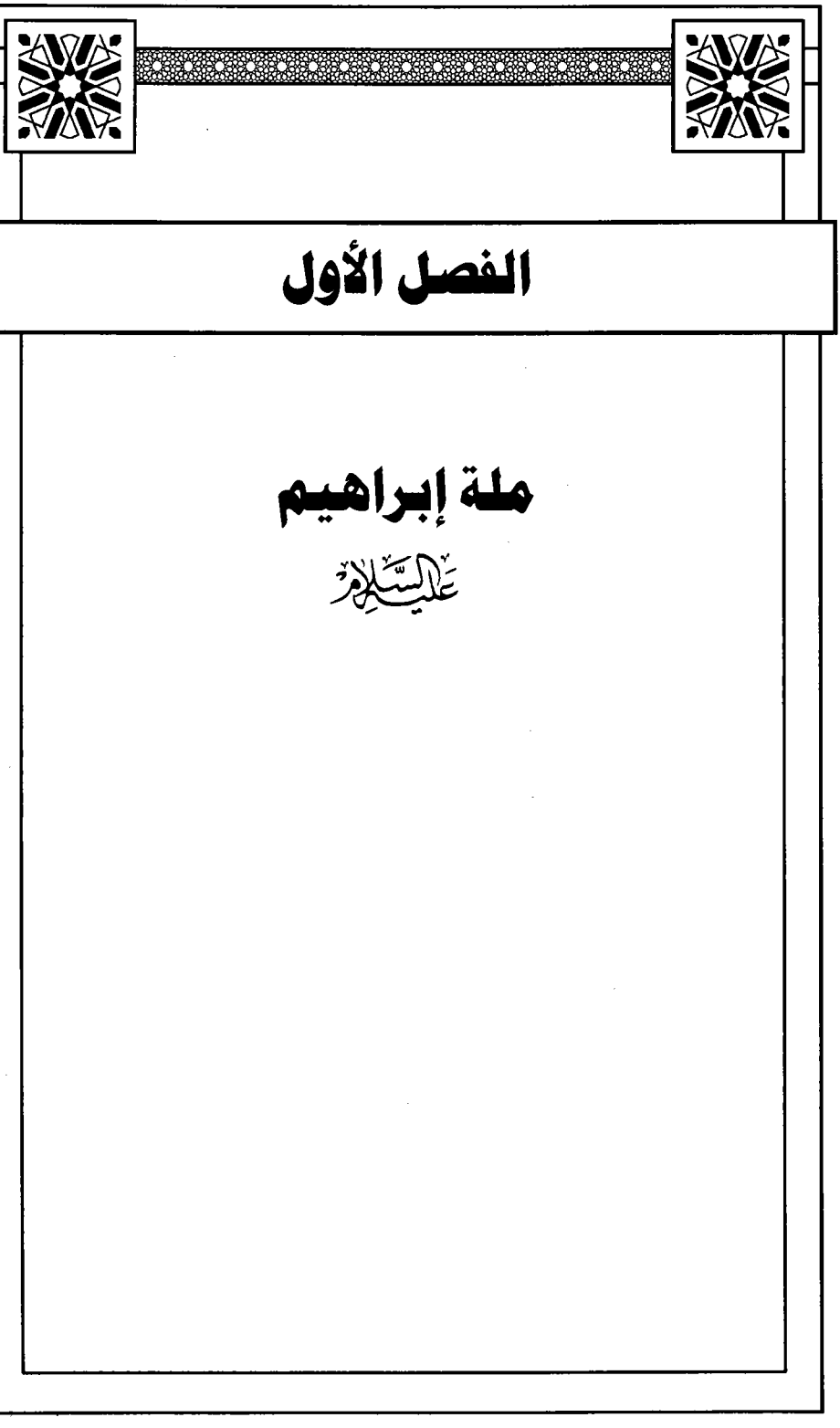

الفصل الأول

ملة إبراهيم عليه السلام

تمهيد

وردت كلمة (ملة إبراهيم) في القرآن كثيراً في مواضع متعددة ومناسبات مختلفة، فتارة يأمر الله باتباعها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[١]، وهو أمر للجميع عام في وجوب اتباع ملَّة أبيكم إبراهيم، وتارة يصف ما أمرنا الله به من دين أنَّه على نفس ملَّة إبراهيم كما قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾[٢]، وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ بابتاعها، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾[٣] والخطاب لنبينا محمد أي قل لهؤلاء المشركين المكذبين إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق دين إبراهيم إمام الحنفاء إبراهيم الخليل وما كان من المشركين وجعل أيضاً أن أحسن ملَّة هي ملَّة إبراهيم فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٤]، كما رد على اليهود والنصارى حينما طلبوا من النَّاس اتباع دينهم وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ﴾[٥]، فقال: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ ...﴾[٦]، إذن ما المقصود بهٰذه الملة وما هي خصائصها؟ ولم كل هٰذا التأكيد على ملَّة إبراهيم؟ وقبل أن نتحدث عن ذٰلك نبين المقصود بالملة، يقول الراغب الأصفهاني: «الملة كالدين وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٥).
(٢) سورة الحج: الآية (٧٨).
(٣) سورة النحل: الآية (١٢٣).
(٤) سورة النساء: الآية (١٢٥).
(٥) سورة البقرة: الآية (١٣٥).
(٦) سورة البقرة: الآية (١٣٥).

الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله»[١].

إذن، هو الدين بكل تفصيلاته وأوامره ونواهيه ولا شك أن المراد منه هو ما ورد عن طريق الوحي سواء كان ما يتعلق بأمور اعتقادية أو تشريعية ومن المعلوم أن الأمر باتباع ملّة إبراهيم هو فيما يتعلق بالأمور الاعتقادية التي لا تقبل النسخ بحد ذاتها، وكذلك الأمور الأخرى التي استمر العمل بها من لدن إبراهيم عليه السلام وإلى عهد نبينا محمد ﷺ مثل أمور الحد وشعائره وسنن الفطرة وآداب أخرى ظلت باقية.

وكان من المفروض أن لا يقع شك أو اختلاف في أن دين إبراهيم عليه السلام هو نفس ما أكدته الأنبياء جميعاً وجاءت به الرسل قاطبة في أنّه لا رب ولا معبود بحق سوى الله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[٢]، ولكن الذي حصل هو انحراف كثير من أتباع الديانات عن الطريق القويم وابتعادهم عن المنهج الصحيح فتلوثت عقائدهم بالفاسد من الآراء، كقولهم: اتخذ الله من الملائكة ولداً، وكقولهم: اتخذ الله ولداً سبحانه، فإنهم حاولوا - تبرئة لأنفسهم - أن يلصقوا جزءاً من هٰذا الانحراف بشخصية عظيمة القدر موغلة في القدم وينسبوا إليها من الدين ما هو منه براء، لقد ادعى النسبة إلى إبراهيم عليه السلام الكثير، وانتسب إليه جماعات وأتباع من شتى الأديان والاعتقادات. فاليهود والنصارى والمشركون من العرب يدعون النسبة إليه واتباعه، وإنهم إنما يمثلون ملته وعقيدته وشريعته. بل ان كلا من هؤلاء ادعى أن إبراهيم عليه السلام على دينه وملته، وأن ما عندهم من دين وعقيدة تمثل في رأيهم دين إبراهيم عليه السلام بما في ذٰلك قضية التوحيد التي هي أهم أركان الدين وأساسه الذي ينبغي أن لا يختلف فيه اثنان، حتى صور إبراهيم عليه السلام صورة مشوهة أمام البشر لاختلاف عقائدهم ومذاهبهم.

لذا رأينا القرآن الكريم أولى هٰذه القضية اهتماماً كبيراً، وكشف النقاب

(١) المفردات الراغب الأصفهاني (٤٧١).
(٢) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

عن جملة من الحقائق، ودخل في نقاش وحوار مع أتباع هٰذه الديانات، وأبرز القرآن ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من دين وعقيدة ليجلوا الغبار عنه ويزيل ما علق في الأذهان من صور خاطئة.

لقد أكد القرآن الكريم - وهو في معرض إثبات (ملة إبراهيم) - على أربع نقاط جوهرية تبين أساس ملّة إبراهيم عليه السلام نبينا في المباحث الآتية.

المبحث الأول
الحنيفية

التعريف اللغوي للحنيفية:

قال الأزهري: الحنيفية في الإسلام الميل إليه والثبات على عقده، وقال أبو عبيد: الحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم.

وقال الراغب: الحنيف: الميل عن الضلالة إلى الاستقامة[١]، ثم توسع في تفسيره فيقال: الحنيف: الناسك أو المستقيم الطريق، ويقال: هو يتحنف، أي: يتحرى أقوم الطريق[٢]، والمسلم الذي يتحنف عن الأديان أي يميل على الحق.. وقيل: هو المخلص، وقيل: هو من أسلم لأمر الله ولم يلتو في شيء، والحنيفية في اللغة: الميل، والمعنى: أن إبراهيم حنف إلى دين الله ودين الإسلام، ويقال: تحنف الشيء تحنفاً: إذا مال لله.. قال ابن عرفة: الحنف الاستقامة، إنما قيل للمائل الرجل أحنف تفاؤلًا بالاستقامة.

وقال أبو منصور: معنى الحنيفية في الإسلام الميل إليه والإقامة على عقده، والحنيف الصحيح الميل إلى الإسلام والثابت عليه[٣].

---

(١) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تأليف شهاب الدين أحمد بن يونس بن محمد بن مسعود بن إبراهيم الحلبي المعروف بالسمين المتوفى سنة (٧٥٦هـ)، تحقيق: محمود محمد السيد الدغيم (١٤٠).

(٢) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفى سنة (٣٩٥هـ)؛ تحقيق: عبد السَّلام محمد هارون (المجلد الثاني ١١١).

(٣) انظر: لسان العرب، مادة حنف (٩/ ٥٨).

أثبت القرآن لملّة إبراهيم صفة الحنيفية وذٰلك من خلال الآيات الآتية:

١- ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

٢- ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

٣- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[٣].

٤- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

٥- ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥].

٦- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦].

٧- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٧].

٨- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٨].

فهٰذا الزخم الوافد من النصوص القرآنية يؤكد على أمر واحد وبصيغ مختلفة على حنيفية الخليل، وعند التأمل بتلك الآيات القرآنية يمكن الإشارة إلى الأمور الآتية:

أولًا: إن الخليل عليه السلام هو النبي الوحيد الذي فاز بهٰذا الوصف العظيم

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٣٥).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٦٧).
(٣) سورة النساء: الآية (١٢٥).
(٤) سورة الأنعام: الآية (١٦١).
(٥) سورة آل عمران: الآية (٩٥).
(٦) سورة النحل: الآية (١٢٠).
(٧) سورة النحل: الآية (١٢٣).
(٨) سورة الأنعام: الآية (٧٩).

من المولى عزَّ وجلَّ وذاك إن دل على شيء فإنَّما يدل على مكانة هٰذا النبي عند الله تعالى.

ثانياً: التأكيد المطلق على حنيفية إبراهيم ونفي الشرك عنه في أغلب المواضع التي وصفته بالحنيفية ولعل لذٰلك أسباباً من أبرزها:

١- إن إبراهيم ضرب مثلًا كريما في مقاومة الإشراك بالله، والاحتفاظ بنفسه صافية وبقلبه سليماً، ودعا ربه أن يطهره ويطهر أبناءه من الوثنية والضلال ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[١].

٢- نلاحظ أن كلمة (حنيفاً) لا تكاد تذكر في القرآن حتى يرد معها نفي الشرك وكأن القرآن يريد أن يذكرنا مرة بعد مرة أن الحنيف والمشرك لا يجتمعان[٢].

٣- التعريض باليهود والنصارى لأن الله تعالى وصفهم بالشرك كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[٣]، وكذٰلك التعريض بالعرب في الجاهلية كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٤]، ودعوى هٰذه الأقوام أنها على دين إبراهيم فيه تهمة لسيدنا إبراهيم أبعدها الله عنه[٥].

٤- لقد تبين لنا من خلال سيرة إبراهيم عليه السلام أنَّه ما سجد للصنم بل حطمها كما تبين لنا توصله إلى حقيقة خالقه واستحقاقه فعبده ولم يزغ عن هٰذه الفطرة السليمة فاستحق أن تنسب الحنيفية إليه وأن يكون ملَّة يقتدى بها عبر السنين والأجيال.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٥).
(٢) انظر: موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي (٢/ ١٣٢).
(٣) سورة التوبة: الآية (٣٠).
(٤) سورة الزمر: الآية (٣).
(٥) انظر: القرطبي (٤/ ٧٠)؛ الرازي (٤/ ٨٠).

وبعد هٰذه النظرة المتأملة في ثنايا النصوص التي حكت حنيفية إبراهيم ننتقل إلى ما قاله أهل العلم من المفسرين حول المراد من هٰذا الوصف وسبب هٰذا التكرار.

۞ التعريف الاصطلاحي:

لدى مراجعة كتب التفسير لم نجد في الأمر زيادة على كتب اللغة إلَّا بعض ما ورد في كتب الأخلاق أن:

المتحنف هو الذي تدفعه مبادئه وقيمه للميل إلى الحق عن الباطل في القلب والنفس، في الجهر والهمس، في الأحوال والأقوال[١]، ويعرفها الشرباصي بقوله: هو أن يتحرى الإنسان أقوم السبل وأعدل الطرق ليسلكها، فليس التحنف مجرد مخالفة أو معارضة للتظاهر أو التفاخر وإنما هو إدراك للحق واعتزاز به وإصرار عليه وإن خالف المخالفون[٢].

وتذكر كتب التفسير بعض المعاني الشرعية التي تتعلق بمعنى الحنيف والتي تعد بمضمونها من السنن وقام بفعلها الخليل إبراهيم وهي أن الحنيف من يحج ويتبع ملَّة إبراهيم أو يستقبل القبلة أو يصلي صوب البيت تجاه القبلة[٣]، ومعلوم أن هٰذه المصطلحات مما عرف بعد إبراهيم والذي يهمنا هو سبب تسمية الخليل بذٰلك وعند تمحيص ما قاله أهل اللغة بشأن معنى الحنيفية يمكن الوقوف عند بعض المعاني التي قد يكون لها بعض العلاقة بوصف الخليل بالحنيفية:

المعنى الأول: الميل إلى الحق.

المعنى الثاني: هو الاستقامة والثبات.

---

(١) انظر: لطائف الإشارات للقشيري، تحقيق: إبراهيم بسيوني، ط١، دار الكتاب العربي، مصر (١/ ٢٦١).

(٢) انظر: موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي (٢٠/ ١٢٧).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٧٠).

المعنى الثالث: الاستسلام لأمر الله بدون التواء.

وهٰذه المعاني من أبرز السمات التي تحلى بها شخص الخليل إبراهيم عليه السلام قبل نبوته فما مال إلى الكفر بالرغم من كونه الأصل المتفشي في مجتمعه وقد ثبت في ميله إلى الحق ودين الفطرة والتوحيد واستقام على أمره مع كل المحاولات والعراقيل التي أرادت صده ولَيِّهُ عن الحق فصمد أمام الإغراءات وثبت أمام التنكيل والعذاب.

ولقد استسلم لأمر الله بكل ما طلب منه استسلام الخاشع المنيب فألقى بذريته بواد غير ذي زرع ونفذ أمر الله بذبح ولده إلى أحداث أخرى، ولعل التصاق تلك المعاني في الخليل إبراهيم قبل النبوة وبعدها هي التي آلت به أن يتبوء شرف الحنيفية ويكون النَّاس كل النَّاس بل وحتى الأنبياء أتباعاً له كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1] لما وصفه به مولاه من الحنيفية... فصلى الله عليه وعلى نبينا أفضل صلاة وأتم تسليم. من بعده أمر الله تعالى نبيه اتباع الحنفية والاتصاف بها، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[3]، كما أمر المولى عباده التحلي بها، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾[4]، وهكذا نرى كلا من إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ لا يرتضي كل منهما ما يدور في مجتمعه الديني من عبادة فاسدة وشطط في الواقع وبعد عن الحق والقوم في ضلال مبين حيث عبدوا الحجارة الصماء والتماثيل الجوفاء وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تملك لهم نفعاً ولا ضراً.

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٤).
(٢) سورة يونس: الآية (١٠٥).
(٣) سورة الروم: الآية (٣٠).
(٤) سورة الحج: الآيات (٣٠ - ٣١).

المبحث الثاني
نفي اليهوديَّة والنصرانيَّة عن إبراهيم عليه السلام

ادَّعى كل من اليهود والنَّصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم الذي ينتمون إليه، وهو اليهوديَّة أو النصرانيَّة وبما أنهم ورثته وينتسبون إليه فما جاء في دينهم هو نفسه دين إبراهيم.

يقول ابن عباس رضي الله عنه: (اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلَّا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلَّا نصرانياً، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ...﴾)[1] في دعوى نسبته إلى اليهوديَّة والنصرانية، ولقد نفى القرآن الكريم هٰذه الفرية نفياً قاطعاً وحسمها بشكل لا يقبل النقاش وفي مرات متعددة بأنَّه ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]، كما أبطل حجة من كان يقول إن إبراهيم كان على دين النصارى أو اليهود وأبطل مستندهم بحجة قاطعة قائلًا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[3]، فما كان إبراهيم على دين اليهوديَّة ولا على دين النصرانيَّة فاليهوديَّة ملَّة محرفة عن شرع موسى والنصرانيَّة ملَّة محرفة عن شرع عيسى فإذا كان الدين لا يعدو التوراة كما تقول اليهود، أو لا يتجاوز الإنجيل كما تقول النصارى، فكيف كان إبراهيم على الحق

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٢٨)؛ وتفسير الآلوسي (٣/ ١٩٤).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٦٧).
(٣) سورة آل عمران: الآية (٦٥).

واستوجب المدح والثناء من قبلهم[١]، (فإبراهيم سابق على التوراة، وسابق على الإنجيل، فكيف إذن يكون يهودياً؟ أو كيف يكون نصرانياً؟ إنها دعوى مخالفة للعقل تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ)[٢]، لأن التقدّم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعاً له[٣] ولهٰذا ختم الحجة بقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

كما أكد أن حجاجهم متهافت جداً وأن جدلهم جدل عقيم لا يقصد منه إلَّا تلبيس الحقائق، لذا قال تعالى راداً عليهم ادعاءهم: ﴿هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤]؛ فأسقط الله جدالهم لأنَّه تعلق بما هو سابق على وجودهم ووجود كتبهم ودياناتهم[٥]؛ ولهٰذا يعتقد كل من اليهود والنصارى أنَّه لا هداية للإنسان إلَّا إذا كان على شاكلتهم وأهوائهم فبين الله أن الفرق كبير بين ما هم عليه وما كان عليه إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٦]، كما رأوا أن الجنة حكر على من كان على ديانتهم فأبطل الله دعواهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٧] أي أن هٰذه مجرد أمور متمناة فهي أماني باطلة ليس لهم عليها برهان ولا حجة[٨].

(١) انظر: تفسير المنار (٣/ ٣٢٩).
(٢) تفسير الظلال (١/ ٦٠٨).
(٣) انظر: تفسير المنار (٣/ ٣٢٩)؛ وينظر: تفسير القرطبي (٤/ ٦٩)؛ الرازي (٨/ ٨٧).
(٤) سورة آل عمران: الآية (٦٦).
(٥) ينظر: تفسير الظلال (١/ ٦٠٨)؛ وتفسير الآلوسي (٣/ ١٩٥).
(٦) سورة البقرة: الآية (١٣٥).
(٧) سورة البقرة: الآية (١١١).
(٨) ينظر: تفسير الرازي (٤/ ٣).

المبحث الثالث
الإسلام

ومن الصفات التي تحدث القرآن الكريم فيها وهو يصف ملَّة الخليل صفة الإسلام، ولعل هٰذه الصفة من أكبر الغايات التي كان طموح الخليل لها متكرراً، ولا يستغرب ذٰلك لما لهٰذه الصفة من مكانة كبيرة كونها تمثل دين الله، ولذٰلك كان إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام حين بناء البيت ورفع الأسس يدعوان إلى رب البيت ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، أي متجهين إليك في جميع أمورنا في معاشنا ومعادنا واجعل ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، تسير على نهجنا مستلهمة ملتنا وإسلامنا متبعة نهجنا ودعوتنا وقد حقق الله دعاءه وأسماه الله مسلما وسمى ذريته بالمسلمين، فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[2]، فقد سمى الله من الأزل مسلماً كل من اعتنق أسس هٰذه الملة وسار على مضامينها من إسلام لله وانقياد له وتوكل عليه وسلم الأمر لمدبر الأمر ومصرف الكون وما يسعى إليه الخليل من نيل رتبة الإسلام أمر طلبه القوم من أهل النبوة والرسالة. وقد حكى لنا القرآن الكريم عن بعض الأنبياء ما طلبوه من الله بخصوص الإسلام، فهٰذا سيدنا يوسف عليه السلام يطلب الوفاة على الإسلام فيقول: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]،

---

(١) سورة البقرة: الآيات (١٢٧ - ١٢٨).
(٢) سورة الحج: الآية (٧٨).
(٣) سورة يوسف: الآية (١٠١).

ومن بعده طلب موسى عليه السلام من قومه الإسلام كشرط لصحة الإيمان والتوكل على الله حيث قال لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(١)، ونقل لنا القرآن الكريم إسلام الحواريين من قوم عيسى حيث قالوا: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٢).

وعن النبي محمد ﷺ ينقل لنا القرآن الكريم ولاءه وإسلامه إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٣).

ولعل قضية الإسلام المطلوبة على لسان الأنبياء سنة فصلها القرآن الكريم مع الخليل إبراهيم عليه السلام وغاية ناشد الخليل ربه أن ينالها وذريته وأمته من بعده أولًا وآخراً، وإليك بيان الأمر كما حكاه القرآن الكريم:

يؤكد القرآن الكريم إسلام إبراهيم في أكثر من موضع: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤)، وتبدأ قصة الإسلام في حياة الخليل عند اللحظة التي طالبه فيها ربه أن يسلم ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٥)، حيث أصبحت قضية الإسلام شغل الخليل وشاغله في عبادته ومناسكه ودعائه، وقد سجل القرآن هٰذا الأمر عبر المشاهد الآتية:

الأول: عند بناء البيت، ولأن بناء البيت طلب الله لإبراهيم وقد نفذ الخليل هٰذا الطلب بشوق ولسانه يطلب الإسلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٦).

---

(١) سورة يونس: الآية (٨٤).
(٢) سورة المائدة: الآية (١١١).
(٣) سورة الأنعام: الآيات (١٦١ - ١٦٣).
(٤) سورة آل عمران: الآية (٦٧).
(٥) سورة البقرة: الآية (١٣١).
(٦) سورة البقرة: الآيات (١٢٧ - ١٢٨).

الثاني: الوصية بالإسلام، فقد سجل القرآن الكريم ما وصى به إبراهيم بنيه لحظة إسلامه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

الثالث: قبول الدعاء وتنفيذ الوصية.. وهو ما نقله القرآن عن يعقوب عندما أوصى أبناءه بالإسلام ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2]، فقد تحقق للخليل ما طلبه من ذرية مسلمة وأمة مسلمة حينما بعث النبي ﷺ بالإسلام.

وبهٰذه الصفات صارت أمة مسلمة، وقد توج القرآن الكريم شيخ الأنبياء بأنَّه أول من علا اسمه في تسمية دين الله بالإسلام، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[3].

والإسلام الذي أثبته الله لإبراهيم عليه السلام ليس مجرد الإقرار باللسان كما هو معروف له، ولكنه شيء أعمق من هٰذا وكما يقول الراغب الأصفهاني[4] (أنه فوق الإيمان وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر وهو المراد بقول إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾).

(١) سورة البقرة: الآيات (١٣١ - ١٣٢).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٣٣).

(٣) سورة الحج: الآية (٧٨).. في المسألة خلاف، فبعض أهل التفسير يرى أن الضمير يعود إلى الله أي أن الله هو سماكم المسلمين والبعض يرى أنَّه يعود إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام بناء على طلبه الذي قال فيه ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. انظر: الرازي (٢٣/ ٧٤)؛ انظر: تفسير الأساس (٧/ ٣٦٠٥).

(٤) مفردات الراغب (٢٤٠).

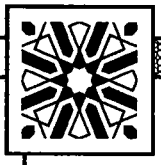
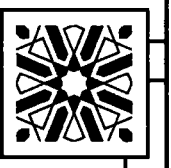

المبحث الرابع
التوحيد، ونفي الشرك عنه

تكرر هٰذا الوصف لإبراهيم عليه السلام كلَّما ذكرت ملته وذكرت حنيفيته وإسلامه، وما ذاك إلَّا لتأكيد القرآن الكريم على نفي ما علق في أذهان بعض من أدعى النسبة إليه وألصق به أي نوع من أنواع الشرك المجافي للإسلام وللدين الحق.

إن المتتبع لسيرة إبراهيم عليه السلام منذ نشأته حتى وفاته لم يلحظ عليه أي أثر من ذٰلك، بل كل حياته شاهدة على ضد ذٰلك من قضية تكسير الأصنام وإلقائه في النَّار إلى نبذه عبادة دين قومه وصدامه مع النمرود وحجاجه مع قومه وأبيه.

ولكن سائلًا قد يسأل: إذا كانت القضية بهٰذا الوضوح لماذا أكد القرآن نفي الشرك عنه بعد ذكر كونه حنيفياً ومسلماً؟

وللجواب على ذٰلك نقول: إنما ذكر الله نفي الشرك عنه لعدة أمور نذكر منها:

أولًا: أنه تعريض بالمشركين من عبدة الأصنام، ومنهم العرب الذين يقومون ببعض أعمال الحنيفية من الحج والختان، وكذٰلك النصارى الذين كانوا يقولون المسيح ابن الله، واليهود الذين كانوا يقولون عزير ابن الله فبرأه الله بأنَّه لم يكن من أنصارهم أو من أوليائهم لأن الكفار بعضهم أولياء بعض، وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1][2].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٦٧).

(٢) الطبري طبعة محققة (م٣/ ١٠٨)، (م٦/ ٤٩٤)؛ وانظر: القرطبي (م٢، ٤/ ٧٠)؛ الرازي (٤/ ٨١)، (٨/ ٨٩، ١٦١)، (١٤/ ١٠، ١١ - ٢١، ١٣٥)؛ الآلوسي (م١/ ج٣٩٤)، (م٢، ٣/ ١٩٥ - ١٩٦)، (م٤، ٧/ ٢٠٢)، (٨/ ٧٠)، (م٧، ١٤/ ٢٥٠)؛ تفسير البيضاوي (١/ ١٦٤).

ومن المشركين المجوس عبدة النَّار والصابئة عبدة الكواكب، فبين نزاهة دينه وأنه من الموحدين، وهم يعترفون بفضله وصحة دينه فألزمهم الله الحجة مع كذبهم وافترائهم على إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: يقول سيد قطب رحمه الله في كتاب الظلال: وهٰذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها: (ولكن كان حنيفاً مسلماً)، ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير:

أولًا: فهو يشير أن اليهود والنصارى الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة، مشركون، ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً.

ويشير ثانياً: إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر فلا يلتقيان، فالإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه وكل مقتضياته، ومن ثم لا يلتقي مع أي لون من ألوان الشرك أصلًا.

ويشير ثالثاً: إلى إبطال دعوى المشركين من قريش في كونهم على دين إبراهيم، فهو حنيف مسلم وهم مشركون[1].

(١) الظلال (١/ ٦٠٩).

الفصل الثانـي

الابتلاءات

المبحث الأول
الابتلاء بالكلمات

صح عن رسول الله ﷺ قوله: «**أشد النَّاس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل من النَّاس يبتلى الرجل حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه**»(١)، ومصداق قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(٢)، ولما كان إبراهيم أبا الأنبياء وقدوتهم صبت عليه الابتلاءات بكثرة لكنَّه خرج منها بالتوفيق كله فنال إمامة النَّاس جزاءً لصبره وذٰلك ما حكاه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣)، فما هي هٰذه الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه السلام؟ لقد اختلفت أقوال المفسرين فيها إلى أقوال، ومن هٰذه الأقوال ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها العشرة التي من الفطرة (المضمضة والاستنشاق وقص الشارب وأعفاء اللحية والفرق ونتف الإبط وتقليم الأظافر وحلق العانة والاستطابة والختان)، وقال عكرمة رضي الله عنه: إنها ثلاثون خصلة من خصال الإسلام، منها التوبة والعبادة والحمد والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحفظ حدود الله تعالى والزكاة وحفظ الأمانة والصَّلاة.. وغير ذٰلك، وقال الحسن: إن الابتلاء بالكلمات هنا هو الابتلاء بالكواكب والقمرين والختان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة

---

(١) مسند أحمد (١/ ١٧٢ - ١٧٣)؛ الترمذي (٧/ ٧٨) وصححه؛ وابن ماجه، كتاب الفتن، باب ٢٣؛ الدارمي، كتاب الرقاق، باب ٦٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

وقيل الطواف والسعي وغيره[١]، ونجد الإمام الطبري بعد إيراده تلك الأمور وغيرها يقول: (والصواب من القول في ذٰلك عندنا أن يقال: إن الله عزَّ وجلَّ أخبر عباده أنَّه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحى هنا إليه أن يعمل بهن فأتمهن كما أخبر الله عزَّ وجلَّ ثناؤه أنَّه فعل وجاز أن تكون تلك الكلمات جميع ما ذكرنا من تأويل الكلمات، وجائز أن تكون بعضه لأن إبراهيم عليه السلام قد امتحن بما بلغنا بكل ذٰلك فعمل به وقام فيه بطاعة الله وأمره الواجب عليه فيه وإذ كان ذٰلك كله فغير جائز لأحد أن يقول عن الله بالكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم شيئا من ذٰلك بعينه دون شيء ولا أعني به كل ذٰلك إلَّا بحجة يجب التسليم لها من خبر الرسول ﷺ لا بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلتها)[٢]، وإذا كان الإمام الطبري قد ركن إلى التسليم بكل ما ورد في الكلمات إلَّا أنَّه لا يسد علينا باب التساؤل: هل يتناسب الابتلاء بقص الشارب وتقليم الأظافر مع مقام الأنبياء وهم كما صرح الحديث الصحيح أشد النَّاس بلاءً؟ فإذا كان أشد الابتلاء تقليم الأظافر فما هو الابتلاء الخفيف؟ وقد أجاد الطبري حين أعلن أنَّه لم يصح في ذٰلك حديث عن رسول الله ﷺ[٣] ويضيف صاحب المنار: (أرى أن هٰذه من الجرأة الغريبة على القرآن ولا شك عند أن هٰذا ما أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزواً)، ورفض بشدة أن يقال: (أن الله تعالى ابتلى نبياً من أجل الأنبياء بمثل هٰذه الأمور وأثنى عليه إتمامها وجعل ذٰلك كالتمهيد لجعله إماماً للنَّاس وأصلًا لشجرة النبوة، وإن هٰذه الخصال لو كلف بها صبي مميز لسهل عليه إتمامها ولم يعد ذٰلك أمراً عظيماً)[٤]، والذي يبدو لي أن هٰذه الكلمات كانت بمثابة إعداد نفسي وتأهيل رباني لسيدنا إبراهيم عليه السلام حتى

---

(١) انظر: الآلوسي (١/ ٣٧٤)؛ الطبري طبعة محققة (م٣/ ٧ - ١٥)؛ القرطبي (م١/ ٦٧)؛ ابن كثير (١/ ١٥٧)؛ الكشاف (٣٠٨ - ٣٠٩)؛ التفسير بالمأثور (١/ ٢٧٣ - ٢٧٤)؛ زاد المسير (م١/ ١٤٠٩).

(٢) تفسير الطبري، طبعة محققة (٣/ ١٥).

(٣) انظر: الطبري (٣/ ١٥).

(٤) المنار (١/ ٤٥٤).

يكون قادراً على تقبل تعاليم الرسالة وجعله إماماً للنَّاس ومرشداً لهم؛ فمنحه سبحانه وتعالى كلمات هي مجموعة من الأدعية والتشريعات قام بتلاوتها حق التلاوة وبتأملها كل التأمل وتعمق في معانيها وداوم عليها حتى تمكنت في قلبه وترسبت في نفسه وتعمق في كيانه حتى أعدت روحه الطاهرة لتقبل الرسالة فهي بمثابة عملية تطهير داخلية لابد لكل رسول يمر بها فهٰذه الكلمات بالنسبة إلى سيدنا إبراهيم كنسبة حادثة شق الصدر لرسولنا محمد ﷺ عملية إعداد وتهيئة منذ أن كان صغيراً في البادية في حضانة حليمة السعدية.

وقبل أن ندخل في تفاصيل أعاظم ما ابتلي به سيدنا إبراهيم عليه السلام ينبغي أن نوضح أن خوارق نبوَّة إبراهيم عليه السلام وابتلاءاته تكون كلها موضعاً واحداً فالحديث الواحد يمكن أن يكون من جانب فيه مقدمات للنبوة وفي جانب آخر فيه ابتلاء ومن الوجه الآخر تقع المعجزة فأكثر معجزات سيدنا إبراهيم جاءت منبلجة عن زلازل الابتلاء حتى لا يبقى أمامه إلَّا الأمل بالذات الإلٰهية ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

(١) سورة البقرة: الآية (٢١٤).

المبحث الثاني
رفض دعوته

إذا كان المصلحون يعتصرون ألماً حينما ينادون أقوامهم إلى طريق الرشد فلا يتبعونهم فإن الأنبياء - وقد شاهدوا طريق الحق أبلج - ينالهم من الأسى والألم بما لا يقارن مع غيرهم من المصلحين، وكيف إذا كان هٰذا النبي هو إبراهيم عليه السلام الداعي بالرحمة لعصاته حيث يقول القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، أي: اجعل مكة بلداً آمناً يأمن فيه أهله ومواطنوه وتنتشر ألوية الأمان فوق ربوعه، ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، أي: احمني يا رب وأولادي من عبادة الأصنام والغرض تثبيته على ملَّة التوحيد والإسلام، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾، أي: يا رب إن هٰذه الأصنام أضلت كثيراً من الخلق عن الهداية والإيمان، ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ﴾، أي: فمن أطاعني وتبعني على التوحيد فإنه من أهل ديني، ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ومن خالف أمرك فإنك غفور رحيم. وقد قاسى نبينا محمد ما قاساه سيدنا إبراهيم من رفض دعوته وقد أشار القرآن الكريم إلى حالة الرسول محمد ﷺ حين كان قومه يرفضون دعوته حيث قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾[2]، ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾[3]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[4].

---

(١) سورة إبراهيم: الآيات (٣٥ - ٣٦).
(٢) سورة فاطر: الآية (٨).
(٣) سورة البقرة: الآية (٢٧٢).
(٤) سورة الكهف: الآية (٦).

وهٰذا النبي الكريم إبراهيم عليه السلام يقدم كل نصح وإرشاد إلى أبيه ثم قومه وهو الحريص على إيمانهم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[1]، في هٰذه الآيات نجد سيدنا إبراهيم يسلك في دعوته لأبيه أحسن منهاج واحتج عليه أبرع احتجاج بحسن أدب ورزانة خلق حتى لا يركب والده متن المكابرة والعناد ولا نأى عن سبيل الهداية والرشاد، حيث طلب منه عليه السلام بيان علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم أو جاهل ويأبى الركوب إليه فضلًا عن عبادته التي هي الغاية العليا من الخضوع والتذلل والتعظيم مع أن هٰذه الأمور لا تكون إلَّا لمن كان له الاستفضاء التام والإنعام العام وهو الحي القيوم جل جلاله، وفي سؤاله عليه السلام لأبيه عن علة العبادة لهٰذه الأصنام تحريك للعقل وتشغيل للمدارك الغافلة وتنبيه على ضلال هٰذه العبادة الفاسدة، وهٰذا الأسلوب أوقع في النفس وأرجى للاستجابة إلى الهداية من التهديد والزجر وخصوصاً أنه عليه السلام يريد استمالة أبيه إلى جادة الإيمان وعبادة الواحد الديان لا تنفره عنه فيحرم من السعادة في الدنيا والآخرة.

وقد سلك إبراهيم هٰذا السبيل لأمرين هامين:

الأول: احترام مقام الأبوة وما يتتبع ذٰلك من طاعة وأمان.

الثاني: حتى يتمكن من إيصال الحجة على أحسن ما يرام وليقع أثرها في نفس والده وتؤدي مفعولها في عقله وإدراكه فيرع عبادة الأصنام والأوثان والشيطان فينجو من عذاب الرحمن.

ومع هٰذا الحرص الإبراهيمي كان جواب أبيه له برفض الدَّعوة الخيرة: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[2].

(١) سورة مريم: الآيات (٤١ - ٤٥).
(٢) سورة مريم: الآية (٤٦).

هكذا قوبل الرسول بهٰذه الغلظة والفظاظة والعناد وتلك هي سنة الكافرين مع داعية الإيمان والحق في كل زمان ومكان، ومع هٰذا التهديد والوعيد يستمر حرص الابن على نجاة أبيه ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[١]، ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٢]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٣]. ويستغفر إبراهيم لأبيه لكن ينبأ بأن أباه ممن لا يغفر لهم عندها يتبرأ منه، إذن إن رضاء الله هو الأولى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[٤].

هٰذا هو موقف الأب من دعوة ابنه، فما كان موقف قومه وماذا قالوا له؟

لقد حرص سيدنا إبراهيم على دعوة قومه إلى الإيمان بالله كحرصه على دعوة أبيه إلى الإيمان بالله وتوحيده، ويتجلى ذٰلك في الآيات الآتية: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۞ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[٥]، وقال أيضاً في الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۞ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۞ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٦].

إن من يمعن النظر في هٰذه الآيات القرآنية يتضح له أن إبراهيم عليه السلام قد

---

(١) سورة مريم: الآية (٤٧).
(٢) سورة الشعراء: الآية (٨٦).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (٤١).
(٤) سورة التوبة: الآية (١١٤).
(٥) سورة الأنبياء: الآيات (٥١ - ٥٦).
(٦) سورة الشعراء: الآيات (٦٩ - ٧٧).

سلك طريق الحجة على قومه بطريقة السؤال المغلف بالتهكم والتجاهل المفتعل المقصود، وذلك ليصل لقومه بعد استدراجهم إلى طريق الحق والصواب، ولكنهم شاغلوا عنه منغمسين في ضلالهم وعبادة ما يزعمون من الآلهة الفاسدة، وقد استهل أسلوب استدراجه لهم بالأسئلة الآتية سائلًا إياهم بقوله عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ غير أن هٰذه الأسئلة لم تنبت نباتاً حسناً في تلك الأرض الجرز، وأصروا على كفرهم وضلالهم ولم يعترفوا بأنها على بطلان وزيغ وقالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، إنه التقليد لآبائهم، ألا لعنة الله على هٰذا التقليد ومن دار في فلكه، غير أنَّه مع هٰذا الحرص عليهم والتمسك بهم يجيبونه أقسى الإجابات ونذكر نموذجين من إجابات أبيه وقومه كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[1]، وبعد أن أنذرهم ودعاهم إلى الإله الحق، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[2]، ولم يؤمن أبوه ولا قومه فهاجر إلى ربه وألم كفرهم يعتصر قلبه السليم ﷺ.

(١) سورة الأنبياء: الآية (٦٨).
(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٤).

المبحث الثالث
الإحراق

ابتلاء آخر لا يقل في مرارته عن الأول، إذ أن قومه لم يكتفوا برفض إجابته إلى الرشاد الذي دعاهم إليه بل أصدروا أمراً غريباً للتخلص منه وهو الحرق بالنار، فقال تعالى يبين ما أجمعوا عليه: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، والابتلاء بالإحراق يبدأ من لحظة صدور الأمر بذلك من النمرود بعد أن أشار به على القوم فوافقوه إلى لحظة كينونته في النَّار حين يتحول هٰذا الابتلاء إلى الإعجاز وسنتكلم عنه في معجزاته أمَّا الآن فلنورد ما ذكره المفسرون في أمر الإحراق وهو أن قوم إبراهيم بعد أن قرروا إلقاءه في النَّار حبسوه، ثم بنوا بيتاً يكون موقداً ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾[1]، استمروا أربعين يوماً يجمعون أقوى الحطب إضراماً ثم أوقدوا ناراً عظيمةً وصفوها بأنها (لا يكاد يمر الطائر في أقصى الجو فيحرق لشدة وهجها)[2]، ثم تحيروا كيف يلقونه فيها فعملوا المنجنيق ليلقوه بها فجاءوا به ﷺ مقيداً مغلولًا فوضعوه في المنجنيق فصاحت الملائكة الى ربها أن إبراهيم الشخص الوحيد الموحد وطلبوا الإذن في نصرته فأجابهم الباري تعالى [إن استغاث بأحد منكم فلينصره وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليّه...] فجاء الملائكة إبراهيم عليه السَّلام في لمساعدته في إطفاء النَّار فاجابهم عليه السَّلام «لا حاجة لي اليكم حسبي الله

(١) سورة الصافات: الآية (٩٧).

(٢) الآلوسي (٩/ ١٧/ ٦٨)؛ الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد الشيباني أحمد عبد الرحمن البنا، دار الحديث، القاهرة (٢٠/ ٥١)؛ الرازي (٢٢/ ١٨٧ - ١٨٨)؛ ابن كثير: (٣/ ١٧٩ - ١٨٠)؛ الطبري (١٧/ ٥٥)؛ زاد المسير (٥/ ٦٦ - ٣٦٨).

ونعم الوكيل وفي احرج اللحظات وحين اوثقوه ليلقوا به الى النَّار قال عليه السَّلام: «**لا إلٰه إلَّا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك**» وفي لحظة الأمر بالإلقاء جاءه جبريل عليه السَّلام قائلًا: «**يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا. فقال جبريل عليه السَّلام فاسل ربك: فقال حسبي عن سؤالي علمه بحالي**»[1] فأربعون يوما في الحبس والاغلال بانتظار استكمال استعدادتهم لإيقاد نار لا يمكن أن ينجوا من يلقى فيها بالحسابات البشرية وإبراهيم لا يعرف ماذا هو حكم الباري في ذٰلك إذن فأربعون يوماً كافية ان يتحمص الإيمان من البهرج أ وهكذا ابتلى ابراهيم فكان كما عهد من قبل أشد ايماناً وحيداً مع شدة المعاقبة بالنار.

قال الزمخشري: «واختاروا المعاقبة بالنار لانها اهول ما يعاقب به وافظعه».

واكدوا ذٰلك بالقائه في الجحيم وهو لفظ يدل على منتهى القسوة لان الجحيم كما قال الزجاج (كل نار بعضها فوق بعض فهي الجحيم وقيل كل نار عظيمة فهي الجحيم)[2].

(١) الآلوسي (٩/ ١٧/ ٦٨)، الطبرسي(١٧/ ٥٤).
(٢) تفسير الطبرسي:(ح٢٣/ ٤٥١).

المبحث الرابع
الهجرة

لم يبق أمل في إيمان قوم أجمعوا على أن يلقوا نبيهم في النَّار في حبور ومسرة. إذن، فقد انقطع كل أمل يرتجى عند إبراهيم في هؤلاء القوم فجاءه الأمر بالهجرة إلى الأرض المقدسة.. والهجرة من الأهل والوطن ليس بالهين ولا بالمستطاب، ولقد وجدنا رسول الله ﷺ حين اضطره قومه إلى الهجرة من مكة إلى المدينة يقف متجهاً إليها بعد أن خرج منها قائلًا: (والله إنك لأحب أرض الله إلي ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)، ولقد حن الصحابة الكرام إلى مكة بعد أن وصلوا المدينة وارتفع صوت بعضهم قائلًا:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مجنّةً ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

ولم يعنف الرسول ﷺ أحداً منهم على ذٰلك وما كان منه إلَّا أن يدعو الله أن يحبب إليهم المدينة كحبهم مكة أو أشد[1]، وحينما عزم إبراهيم عليه السلام على الهجرة جمع من آمن به وهم قليل لم يذكر منهم إلَّا زوجه سارة وابن أخيه لوط عليهم السَّلام، وخرج بهم مع ما يمتلكونه من أموال ومواشي قاطعاً آلاف الأميال في رحلة شاقة وعصيبة إلَّا أنَّه الأمر الإلٰهي وما على الرسول إلَّا التنفيذ وذكر القرآن ذٰلك بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]،

---

(١) الحديث رواه البخاري بشرح الفتح (٤١/ ٨٠)؛ مسلم بشرح النووي (٩/ ١٥٠).
(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[١]، أي خارج من جملة الظالمين على جهة الهجر لهم لقبيح أعمالهم من حيث أمرني ربي، وأكدها بقوله (سيهدين) ترغيباً لمن هاجر معه في الهجرة وتوبيخاً لقومه[٢].

(١) سورة الصافات: الآية (٩٩).
(٢) الطبرسي (٨/ ٤٥١).

المبحث الخامس
الهجرة

لما استقام المقام بإبراهيم عليه السلام في الأرض المقدسة - أرض فلسطين - بعد هٰذه الرحلة الطويلة من بلاد بابل إلى حران ثم إلى أرض فلسطين فاراً بدينه ومن آمن به وهاجر معه لكنَّه ابتلي بنوع آخر من البلاء وهو القحط والجوع: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، حيث عم قحط كاسح كل بلاد فلسطين مما جعل إبراهيم عليه السلام يقرر الاتجاه نحو مصر لِيَمتار فشد الرحال من جديد متجهاً هٰذه المرة إلى أرض مصر بحثاً عن الرزق[2]، لكنَّه ما أن حط عليه السلام عصا الترحال في مصر حتى تلقى نوعاً آخر من الابتلاء، إذ وشى به وبذويه بعض حاشية الملك أن هناك امرأة فاتنة في الجمال قد دخلت مصر مع رجل يدعى إبراهيم، وقد كان هٰذا الملك قاسياً ولنورد القصة كما جاءت في البخاري:

(بينما هو - إبراهيم - ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له أن هناك رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هٰذه؟ قال: أختي، فأتت سارة، قال: يا سارة، ليس على وجه الأرض من مؤمن غيري وغيرك وأن هٰذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلمَّا دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك،

(١) سورة البقرة: الآية (١٥٥).
(٢) انظر: قصص الأنبياء للنجار (٦٣).

فدعت ما طلق فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان، فأخذ بها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره وأخدم هاجر)[1].

حقاً إنها محنة تزل فيها الأقدام إلَّا من رحم ربي، لكن هنا يلح سؤال مفاده: كيف حصل هٰذا من إبراهيم عليه السلام؟ كيف سلم زوجه لظالم مغتصب وهو الذي عرفناه من قبل صلباً في الحق صامداً حتى ألقي في النَّار وهو صابر محتسب؟ فهل يمكن لهٰذا الجبار أن يفعل به أكثر مما فعله قومه؟ وقد ذكرت إجابات شتى عن هٰذا كلها واهية لا يقبلها عقل من عرف حال إبراهيم وصلابته، والذي أراه أن إبراهيم ما فعل هٰذا إلَّا بأمر إلهي، وهو الواثق كل الثقة في أن الله لن يخزيه وأنه سينصره كما نصره في مواطن أخرى.

(١) انظر: صحيح البخاري (٦/ ٣٨٨) بشرح الفتح.

المبحث السادس
العقم وتأخر الإنجاب

لعل مما لا يحتاج الباحث إلى تأكيده، وجود الطبيعة البشرية للأنبياء فهم بشر يأكلون ويشربون ويتزوجون، ومما يريده الإنسان ويتعلق به تعلقاً لا مثيل له إنجاب الذرية، غير أن الله تعالى امتحن سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن منعه في شبابه وكهولته من الإنجاب، حتى يئس عليه السلام بالمنظور البشري من أن يأتيه ولد، لكنَّه تضرع إلى ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[١]، وقد ولد له إسماعيل بكر أولاده وعمره (٩٩) سنة[٢]، إذن فقرن كامل تقريباً بعيد وهو محروم الولد حتى تقدمت به السن وجاء على لسان زوجه سارّة ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[٣]، وقال إبراهيم عليه السلام حين بشرته الملائكة بإسحاق: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۞ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۞ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[٤]، وبعد هٰذا الزمن العصيب جاء الفرج بالأولاد عليهم السَّلام.

(١) سورة الصافات: الآيات (١٠٠ - ١٠١).
(٢) انظر: القرطبي (م٥، ٩/ ٢٤٦)؛ مروج الذهب (١/ ٤٥).
(٣) سورة هود: الآية (٧٢).
(٤) سورة الحجر: الآيات (٥٤ - ٥٦).

المبحث السابع
إبعاد الابن الوحيد

لسنا نكتب في موضوع إنشائي لنعبر عن الأحاسيس التي تجيش عند الرجل وهو يستقبل ابنه البكر بعد أن يمسه الكبر ثم يسلمه للمجهول وإنما نحتاج إلى مثل هٰذه المشاعر لنقف على عمق الابتلاء وعنف الاختبار، فما أن ولد لإبراهيم من زوجه القبطية هاجر ابنه الوحيد إسماعيل حتى صدر الأمر الإلٰهي أن يسكنها بواد غير ذي زرع عند البيت الحرام ويتركهما هناك ويعود قافلًا وهو يجهل المصير إلَّا الثقة بالله تعالى، ولنورد الخبر كما جاء في البخاري[1]:

قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتخفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دومة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذٍ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هناك ووضع عندها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم مضى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهٰذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذٰلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهٰذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهٰذه الكلمات ورفع يديه قائلًا: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ

(١) صحيح البخاري (٦/ ٣٩٦)؛ ووردت أيضاً في: تفسير الطبري طبعة غير محققة (١٣/ ٢٢٩ - ٢٣٥)؛ القرطبي (م٥، ٩/ ٢٤٢ - ٢٤٥)؛ الآلوسي (م٧، ٣/ ٢٣٦).

يَشْكُرُونَ﴾[1] إذن طفل رضيع وأمه جاء بهما من مكان صحيق ليضعهما في صحراء قاحلة لا ماء ولا نبات ولا بشر فيها، ويتركهما هكذا إلَّا من قربة ماء وجراب تمر، ثم يعود وهو يسمع إلحاح الزوجة مستفسرة عن مصيرها وطلفها الرضيع في هٰذا الضياع الرهيب وليس عند الأب جواب، ياله من قلب صابر في موقف تنهد فيه الجبال هدا!

ومع هٰذا كله فإبراهيم الذي نجاه ربه من النَّار لابد أن يصبر على هٰذا البلاء ويستسلم للقضاء وهو على يقين أن الذي أنجاه من النَّار سيحفظ له فلذة كبده إسماعيل، وهكذا ابتلي جميع المرسلين وكلَّما نجوا من ابتلاء مروا بابتلاء أخر يتم الإعداد والتأهيل لابتلاء أكبر.

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٧).

المبحث الثامن
الأمر بذبح ولده

لم يتوقف البلاء على إبراهيم عليه السلام عند هٰذا الحد من فراق الأهل والولد بل تتابع عليه حتى وصل الذروة في (البلاء المبين) كما وصفه القرآن الكريم وهو الأمر بذبح وحيده الذي جاءه بعد يأس، وبعد أن اضطر أن يدعو ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهو الذي لم يدعُ لنفسه حين ألقوه في أتون الجحيم، وهو الشيخ المقطوع من الأهل والقرابة المهاجر من الأرض والوطن، يرزق بغلام طالما تطلع إليه، ولم يكد يأنس به ويسعد به حتى تأتيه الإشارة من ربه بذبحه، إن الأمر شاق إذ لم يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة، ولا أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته، إنما يطلب إليه أن يتولى ذبحه بيده![1].

ولقد صور القرآن الكريم هٰذه المشاهد حيث يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾[2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٧/ ٦٣)؛ يسألونك في الدين والحياة، الدكتور أحمد الشرباصي، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٧م (٢/ ٤٤٩ - ٤٥٠).

(٢) سورة الصافات: الآيات (١٠٠ - ١١٣).

من هو الذبيح؟

أطال المفسرون الكلام في من هو الذبيح، أهو إسماعيل أم إسحاق؟ وجمهور المفسرين على أن الذبيح هو إسماعيل ودليلهم الكتاب الكريم؛ لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح إسماعيل: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فدل ذٰلك على أن الذبيح هو إسماعيل، أمَّا القائلون بأن الذبيح هو إسحاق فلا حجة لهم ويبدو لي أن القائلين بأنَّه إسحاق لا حجة لهم لا من كتاب أو سنة أو عقل، وأمَّا القائلون بأنَّه إسماعيل فلهم من الأدلة ما فيه الكفاية في القول، ومنها:

١- أن الله بشر إبراهيم بغلام حليم، وأمره بذبحه ثم أردف ذٰلك بشارته بإسحاق، مما يعني أن الذبيح هو غير إسحاق.

٢- قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[١]، مما يعني أنَّه علم أن إسحاق سيتزوج ويولد له ولد اسمه يعقوب والذي أمر بذبحه طفل بلغ معه السعي مما يعني أنَّه كان هو نفسه لاختل التبليغ أو لفقد ما فيه من البلاء المبين، إذ لو قال له أن ابنك هٰذا سيأتيه ولد ثم قال له اذبحه، لعلم أن الأمر بذبحه غير حقيقي لتعارضه مع الخبر السابق، وعندها لا يكون فيه بلاء يذكر[٢].

٣- ورد في العهد القديم أن الله أمر إبراهيم بذبح وحيده وبكره ويعترف العهد القديم أن بكره هو إسماعيل[٣] وقد يقال أنَّه لا يهم أن يكون هٰذا الابن إسماعيل أو إسحاق، لكنا نقول أن هناك أمراً مهماً من حيث قوة الابتلاء وهو أن يكون الابتلاء أشد وأقسى حين يكون المأمور بذبحه هو البكر الوحيد وهٰذا هو اللائق بمقام إبراهيم عليه السلام، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، لذٰلك وصفه القرآن الكريم بالبلاء المبين.

---

(١) سورة هود: الآية (٧١).

(٢) تاريخ الطبري (١/ ٢٧٠)؛ الكشاف (٣/ ٣٥٠)؛ ابن كثير (٤/ ١٥).

(٣) دراسات في التفسير الموضعي، د. أحمد جمال العمري، ط١، القاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م (٢١٣).

الفصل الثالث

المعجزات والمنح الإلٰهية

المبحث الأول
المعجزات

المعجزة: لغة من أعجز فلان: سبق فلم يدرك، والمعجزة ما يعجز البشر أن يأتوا بمثله، وعند علماء الكلام: هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبي لإثبات نبوته وتحدي مخالفيه[١]، وسيدنا إبراهيم كان بحاجة إلى المعجزة حيث أن التحدي كان يأتيه من عدة جهات وأينما حل وارتحل.

وما يلاحظ على معجزات سيدنا إبراهيم أن أغلبها إن لم نقل كلها، جاءت انفراجاً عن ليل حالك من الابتلاء الإلٰهي له؛ فمعجزاته هدايا فوزه بهٰذه الاختبارات. ونذكر الآن أمثلة لمعجزاته:

المعجزة الأولى: خروجه من النَّار سالماً

أبرزنا في مبحث ابتلاءات إبراهيم عليه السلام أن قومه قرروا التخلص منه ومن دعوته بإحراقه بنارٍ حاميةٍ، ووقفنا هناك حيث انتهى الابتلاء، لنكمِّل هنا جائزة الابتلاء هٰذه، وهو نجاته من النَّار، وقد أورد القرآن الكريم هٰذه المعجزة أكثر من مرة وبعد أن نورد النصوص القرآنية فيها سنذكر بعض ما صح في تعظيمها، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟

(١) التعريفات، لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت٨١٦هـ)، تحقيق: د. أحمد مطلوب، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م (١٢١)؛ وانظر أيضاً: المعجم الوسيط، لإبراهيم أنيس وجماعة، دار الأمواج، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م (٥٨٥).
(٢) سورة الأنبياء: الآيات (٦٨ - ٧١).

﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١]، ففي اللحظات التي فارق فيها إبراهيم (المنجنيق) باتجاه النَّار صدر الأمر الإلٰهي لها: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[٢]، لذٰلك لم تصبه بأذى منذ أن لامسها إلى أن خرج منها وقد ورد عن بعض السَّلف رضي الله عنهم أن الملائكة أقعدت إبراهيم عليه السلام على الأرض داخل النَّار وإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس وأن النَّار لم تصب من إبراهيم إلَّا وثاقه، وإن ملك الظل كان سميره وجليسه يحادثه، وتعددت الآراء في مدة مكثه[٣] فيها بين عدة أيام وخمسين يوماً، بعدها أشرف النمرود على النَّار ليرى ما فعلت بإبراهيم فإذا به لم يمس بأذى فخاطبه قائلا: يا إبراهيم، هل تستطيع أن تخرج منها قال: نعم، قال: قم فاخرج، فخرج إبراهيم منها ماشياً، ثم أن النمرود قرب عدداً كبيراً من البقر ذكر بعضهم أنها أربعة آلاف بقرة لله تعالى مع أنَّه استمر على كفره ويذكر أن إبراهيم عليه السلام قال عن فترة مكثه في النار: (ما كنت أياماً أطيب عيشاً مني إذ كنت فيها)[٤]، **وهنا لابد أن يتساءل البعض، إذا كان الأمر هكذا حتى أن النمرود قدم هٰذا العدد الهائل من القرابين فلم لم يسلم إذن بعد أن علم قدرة رب إبراهيم؟**

والجواب: إن ما منع فرعون من الإيمان بموسى بعد أن رأى البينات وما منع قريش أن تؤمن برسول الله ﷺ بعد أن شاهدت المعجزات هو نفسه الذي منع النمرود، وأعني به حب الرياسة والدنيا.

وتذكر بعض المصادر أن النمرود بعد أن شاهد إبراهيم عليه السلام يخرج من النَّار سالماً كف عن الأذى.. فإذا كان هٰذا صحيحاً فلماذا عذب وهلك؟ ولم هاجر إبراهيم عليه السلام ولم يستمر في دعوة قومه إلى الإيمان؟

والجواب عن الشطر الأول من السؤال: إن كف الأذى المادي عن الأنبياء

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٤).
(٢) سورة الأنبياء: الآية (٦٩).
(٣) انظر: تفسير الرازي (٢٢/ ١٨٨)؛ تفسير ابن كثير (٣/ ١٨٠).
(٤) تفسير الرازي (٢٢/ ١٨٨).

لا يكفي وحده، بل لابد من الإيمان بهم واتباع سبلهم، فعدم الاستجابة لدعوتهم بحد ذاته أذى قد يوازي الأذى المادي ولقد وقف بعض القريشيين يذودون عن رسول الله ﷺ ولم يدخلوا الإسلام، فلم ينفعهم ذٰلك كثيرا بل حاربهم الإسلام فيمن حارب. أمَّا الشطر الثاني من السؤال فالإجابة عنه أن إبراهيم عليه السلام علم أن هؤلاء القوم لا يمكن أن يدخلوا دينه ويتركوا دين النمرود، إما لأنَّهم أشربوا في قلوبهم الشرك وإما خوفاً من النمرود وما سيفعله بهم لو أنهم اتبعوا إبراهيم، لذٰلك وبعد أن يئس منهم وقرر الفرار بدينه بحث عن قوم يقبلون دعوته، على أن ظاهر القرآن الكريم يدل على عدم صحة القول بأن النمرود كف عن الأذى عن إبراهيم خوفاً منه في الظاهر، فقد كانوا يتحينون الفرص للانتقام منه فضايقوه ببث الجواسيس وتحذير النَّاس من اتباعه فكان يرى من التضييق ما يراه المصلحون في كل آية فضاقت نفسه فقرر الهجرة بقول تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

المعجزة الثانية: رد كيد فرعون

بعد أن ابتلي حين دخل مصر مع زوجته سارة إذ طالبه فرعون مصر بأن يرسل إليه (سارة) فأرسلها إبراهيم لكنَّه بقي ينتظر الفرج الإلٰهي حيث تذكر بعض الروايات أنه عليه السلام استعان بالصبر والصَّلاة على ذٰلك حيث قام يصلي ويدعو ربه فوقعت المعجزة وهي أن فرعون بعد أن أدخلت عليه سارة أراد أن يمسها بسوء لكن الله تعالى إكراماً لإبراهيم عليه السلام ولها شل يده ومنعه أن يصل إليها بعد تكراره المحاولة أكثر من مرة فعلم أن هٰذا المنع ليس إلَّا معجزة ربانية لها ولزوجها وأعادها إليه مكرمة محملة بالهدايا والأموال فأتت إبراهيم عليه السلام (وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر، أو الفاجر في نحره)[2].

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات (٧٠ - ٧١).

(٢) البخاري (٦/ ١٨٨).

المعجزة الثالثة: الإنجاب في سن اليأس

تأخر الإنجاب عند سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى أن زوجه أشفقت عليه وطلبت منه أن يقترن بهاجر لعل الله تعالى أن يرزقه ولداً يكون له عوناً في كبره وذكراً بعد وفاته، فتوجه إبراهيم عليه السلام إلى ربه داعياً ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[1]، فكان إسماعيل عليه السلام استجابة لدعاء إبراهيم، وقد ولد بعد سن لم تكن العادة أن يرزق فيها الرجل ولداً، إلَّا أن الله أراد أن يكرم نبيه بما لا تسير عليه نواميس الحياة، ثم أردف هٰذا بمعجزة تكريم أخرى حيث أعطاه ولدا آخر بعد سنين طوال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۞ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۞ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۞ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۞ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۞ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[3].

المعجزة الرابعة: زمزم

في ابتلاءات إبراهيم ذكرنا أنَّه وضع ابنه إسماعيل وأمه هاجر بواد غير ذي زرع كما وصفه القرآن الكريم وأن إبراهيم تركهما هناك ورجع ولكن قلبه الرحيم كان معهما، فما أن غابوا عن نظره حتى رفع يديه ضارعاً إلى الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[4].

وسرعان ما كانت الإجابة الإلٰهية، ماء يتدفق، وعرب يستهويهم المقام في

---

(١) سورة الصافات: الآيات (١٠٠ - ١٠١).
(٢) سورة الحجر: الآيات (٥١ - ٥٦).
(٣) سورة هود: الآيات (٧١ - ٧٣).
(٤) سورة إبراهيم: الآية (٣٧).

هٰذا الوادي، يروي البخاري أن أم إسماعيل بعد أن تعلقت بإبراهيم عليه السلام واستفسرت منه كيف يتركهما هنا وأنها علمت أن ذٰلك بأمر الله عادت إلى ابنها وجعلت ترضعه وتشرب من الماء الذي تركه لهما إبراهيم (حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليه فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذٰلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فذٰلك سعي النَّاس بينهما**»، فلمَّا أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه - تريد نفسها - ثم سمعت أيضاً فقالت: قد سمعت إن كان عندك غوث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها - هكذا - وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معيناً**»)[1]، ثم يورد البخاري أن قبيلة جرهم قد نزلت على الوادي وزمزم بإذن هاجر رضي الله عنها فشرب معهم إسماعيل وتزوج منهم، وهكذا تمت المعجزة الإبراهيميَّة في الولد الصالح مقيم الصَّلاة، والماء الطاهر زمزم والأفئدة التي تهوي إلى البيت الحرام من جرهم إلى يوم النَّاس هٰذا.

المعجزة الخامسة: فداء الذبيح

بعد أن اكتمل البلاء (المبين) حيث سلّم الأب وابنه أمرهما لربهما وتل الأب ابنه للجبين وأخرج سكينه المشحوذة ليقطع أوداجه ولم يبق متسعاً للنكول انبلج الفرج الإلٰهي بالفداء كما أنبأنا تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ

(١) البخاري شرح الفتح (٦/ ٣٩٦ - ٣٩٧)؛ تاريخ مكة (٢/ ٣٩ - ٤٠).

﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١].

وإذا كانت النَّار قد سلبت وظيفتها حين دخلها إبراهيم عليه السلام فلم تؤثر فيه إحراقاً فإن الإعجاز هنا كان أسبق وقتا حيث أن الأمر بإيقاف التنفيذ صدر قبل وصول السكين إلى الابن المطروح أرضاً فلمَّا أدخل يده ليذبحه فلم تصل المدية حتى نودي أن يا إبراهيم صدقت الرؤيا فأمسك يده[٢]، وفي هٰذا رحمة من الله تعالى ذٰلك أن إبراهيم حين أمروا بإلقائه في النَّار لم يبال حيث أنَّه هو المعين بالإلقاء ومثل هٰذا يقول الصحابي الجليل خبيب بن عدي:

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

ولكن الشخص الرحيم يعطف على ابنه أكثر مما يعطف على نفسه لذٰلك كان الفداء قبل بدء التنفيذ، على أن بعض المفسرين قالوا: إن إبراهيم قد قام بالتنفيذ فعلا فأمرّ السكين على حلق الذبيح، هنا جاء الأمر الإلٰهي بمنع السكين من عملها وسلبها خصوصيتها فلم تذبح أو إنها انقلبت لا عن إرادة من إبراهيم عليه السلام، ويكون هٰذا القول قد أضاف معجزة أخرى ضمن هٰذه المعجزة وهي منع السكين من علمها والفداء بذبح عظيم[٣].

المعجزة السادسة: الدَّعوة المستجابة

بعد أن رفع إبراهيم مع ابنه البكر إسماعيل عليه السلام قواعد البيت الحرام رفعا أيديهما إلى الله تعالى بالدعاء قائلين:

١- ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٤]. فاستجاب الله

(١) سورة الصافات: الآيات (١٠١ - ١١٠).
(٢) السيوطي، تفسير الدر المنثور (٧/ ١٠٤).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٦٨).
(٤) سورة البقرة: الآيات (١٢٨ - ١٢٩).

دعاءهما بأن جعل من ذريتهما أمة مسلمة يسير على نهجها الإسلام وتستلهم مبادئه فلإسلام دعوة إبراهيم عليه السلام بكل ما تتضمنه لفظة الإسلام وهي الأساس الذي قامت عليه شريعة إبراهيم وقد تحقق دعاؤه وأسماه الله مسلماً وسمى ذريته بالمسلمين، فقال: ملَّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، حيث سمى الله من الأزل (مسلماً) كل من اعتنق أسس هٰذه الملة وهي الإسلام لله والانقياد له والتوكل عليه وتسليم الأمر لمدبر الأمر ومصرف الكون، ومنها يتضح أن وصف الإسلام ليس منصباً على كل من آمن بدعوة محمد ﷺ في عهد محمد أو من بعده فحسب، بل هو وصف ولقب أطلقه الله من قبل استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام على كل من آمن برسوله الذي بعث في زمنه وبكل من وحد ربه وأسلم وجهه وقلبه وأمره كله لله رب العالمين، وهٰذا هو المسلم في عرف القرآن من زمن إبراهيم حتى اليوم والمتتبع لآيات القرآن يجد ذٰلك، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2]، فكل رسول من لدن إبراهيم عليه السلام إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين جاء بالإسلام استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

٢- ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، تقول كتب التفسير أن الله أرسل إلى إبراهيم ملكاً من السماء فعلمه مناسك الحج فجعل إبراهيم يعلمها للنَّاس كما تعلمها عن الملك وقد تقبل الله دعاءهما فجعل هٰذا البيت كعبة للنَّاس يحجون إليه.

٣- سأل إبراهيم ربه أن يمن على نسله وذريته من بعده برسول يوجههم إلى الإسلام فكان هٰذا، استجاب الله الدعاء ببعثه السراج المنير نبينا محمد الهادي البشير يتلو آيات القرآن ويعلم النَّاس الكتاب والسنة ويطهرهم من رجس الشرك إنك أنت العزيز الذي لا يقهر والحكيم الذي لا يغفل إلَّا ما

(١) سورة البقرة: الآية (١٣٢).
(٢) سورة آل عمران: الآية (١٩).

تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تربط بين هٰذه الآية وبين نبوَّة الرسول عليه السلام فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بأول ذٰلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى أخي ورؤيا أمي التي رأت وكذٰلك أمهات النبيين يرين**»[(١)]، وعن أبي إمامة قال: قلت يا رسول الله ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنَّه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»[(٢)]. وعن الضحاك أن النبي ﷺ قال: «**أنا دعوة إبراهيم، قال وهو يرفع القواعد من البيت** ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾»[(٣)]، وكفى لإبراهيم عليه السلام معجزة أن استجاب الله له فكان سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ تلك الدعوة.

على أننا سنتكلم عن ذٰلك بشيء من التفصيل في مبحث الدعاء إن شاء الله.

المعجزة السابعة: رؤيته ملكوت السَّماوات والأرض

عاش إبراهيم عليه السلام في مجتمع يغوص بالشرك والضلال، ويموج بالأوهام والخرافات ولم يعد التوحيد إلَّا نادراً، فأراد الله سبحانه لخليله التثبيت واليقين؛ ليكون أصلب عوداً وأقوى مجابهة معهم فأيده بمعجزة زادت إيمانه يقيناً وعقيدته قوة وثباتاً، وهي التي عبر عنها القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[(٤)]، فقد كشف الله عن نظر إبراهيم الحجب عن نظره فجالت في آفاق السَّمٰوات والأرض، واطلع عيناناً على أسرار

(١) مسند أحمد (٤/ ١٢٧ - ١٢٨)؛ والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢١١ - ٢١٢)؛ وحلية الأولياء، أبو نعيم (٦/ ٨٩ - ٩٠)؛ دلائل النبوة (١٩ - ٢٠)؛ والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٠)؛ وابن حبان في صحيحه، والفموي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٤٥).

(٢) مسند أحمد (٥/ ٢٦٢)؛ الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٠)؛ مجمع الزوائد للإمام الهيثمي (٨/ ٢٢٢)؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/ ٦٢) إلى عزاه ابن عساكر في تاريخ دمشق.

(٣) رواه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٣٤).

(٤) سورة الأنعام: الآية (٧٥).

عظيمة، وشاهد من الغيب ما لا يدركه كثير من الخلق، ورأى من عجائب السَّمٰوات والأرض ما زاده يقيناً وإيماناً، والملكوت مصدر كالرغبوت والرحموت وتاؤه زائدة ولهٰذا فسّر بالملك العظيم والسلطان القاهر، أي أريناه ربوبية الله تعالى ومالكيته فهما لا تبصيراً آخر أدنى منه[١]، وأمَّا الذي رآه فيهما شاهدا على ربوبيته فاختلف فيه المفسرون، فمنهم من قال: العجائب التي في السَّمٰوات والأرض فإنه عليه السلام فرجت له السَّمٰوات السبع فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن، وقيل: ملكوت السَّمٰوات الشمس والقمر، وملكوت الأرض الجبال والأشجار والبحار[٢]، وأمثال هٰذه الأقوال يظهر منها أن المقصود منها ليس الآراء البصرية وحدها، بل اطلاعه عليه السلام على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شؤونه عز ودل، ولا ريب في أن ذٰلك ليس مما يدرك حساً كما قال الآلوسي رحمه الله[٣]، وأمَّا ما قاله بعضهم من اطلاعه على معاصي بني آدم ودعائه عليهم فقد رده بعض المحققين ولا يثبت فيه خبر صحيح[٤].

(١) انظر: تفسير الآلوسي (٤/ ١٩٧).

(٢) ينظر هٰذه الأقوال في الكتب الآتية: تفسير الرازي (١٣/ ٤٣)؛ وتفسير الآلوسي (٤/ ١٩٧).

(٣) انظر: روح المعاني (٤/ ١٩٨).

(٤) ينظر: تفسير الرازي (١٣/ ٤٣)؛ ومال الآلوسي إلى إمكانيته، ينظر تفسيره (٤/ ١٩٧).

المبحث الثاني
المنح الإلهية

إذا كان لنا أن نتحدث عن المنح الإلٰهية بحق الإنسان فهي أبلغ من الذكر وأكثر من العد، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]؛ فليس من السهل استقصاء منح إلٰهية بحق إنسان من المخاليق، لذٰلك لا يعد التتبع القرآني الذي نقوم به بشأن الخليل من هٰذا القبيل إنما هو من قبيل ذكر بعض المآثر الإلٰهية التي خص الله بها هٰذا النبي على غيره، فالأنبياء يتساوون بالفضل في مقام النبوة لكنهم يختلفون في نيل الحظوظ من الله تعالى، قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2]، والحقيقة أن الوقوف على ملامح تلك الأعطيات الإلٰهية يوحي لنا بالفضل الكبير لهٰذا النبي مما يجعله يتبوأ مقعد الصدارة بعد الخاتم محمد ﷺ وإذا كان الجزاء من جنس العمل، فإن الجزاء الذي أعطي لإبراهيم عليه السلام من ربه ينطبق مع ما قدمه من عمل، فالابتلاءات الشديدة التي تحملها إبراهيم بقلب المؤمن الصابر كوفئ عليها من ربه بأنواع من التكريم لم ينله نبي قبله، بل وحتى بعده ما خلا النبي محمد ﷺ، ومن أجل البيان والتوضيح نتعرض لاستقراء النصوص القرآنية التي بينت لنا بجلاء ما أعطاه الله تعالى للخليل إبراهيم من منح في الدنيا ودرجات في الآخرة.

۞ الإمامة

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ

(١) سورة الإسراء: الآية (٧٠).
(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١]، وسنتعرف هنا على أمرين: الأول في معنى الإمامة والثاني في أسبابها.. تكشف لنا هٰذه الآية عن منحة إلهية أكرم الله بها إبراهيم خليله بأن جعله إماماً.

والإمام: هو من يؤتم به ويقتدى، وفي الحقيقة فإن إمامة إبراهيم هنا إمامة شاملة يوحي بذٰلك ما أشار إليه القرآن بقوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فكلمة النَّاس تفيد العموم من غير تفريق بين المسلم وغير المسلم وقد أكد القرآن هٰذا الأمر حينما بين نزاع الملل كافة في الانتساب إلى إبراهيم وكل يدعي إمامته ونبوته، يقول الشيخ سعيد حوى: (وإمامة إبراهيم مؤيدة بجمع عليها حتى المختلفون من أبناء الديانات الكتابية)[٢]، كما جعل من ذريته أئمةً ورسلًا مرشدين.

۞ الأمر الثاني: في أسباب الإمامة:

بعد أن تعرفنا فيما سبق على إمامة إبراهيم للنَّاس ورأينا تعلق الملل بنبوته واعترافهم بفضله، نتطرق الآن لمعرفة أسباب هٰذه الإمامة، ونسأل الله التوفيق.

أولًا: إن الآية التي تحدثت عن إمامة إبراهيم ذكرت لنا سبب من هٰذه الأسباب، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فكشفت لنا الآية أن الله تعالى ابتلى إبراهيم بأمور فأتمهن وصبر عليهن فكان التكريم مباشرة أن قال له مولاه ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ولعل هٰذا الصبر من أبلغ الأسباب إذ يقول فيها النبي ﷺ: «**وما أعطي أحدٌ عطاءً هو خير وأوسع من الصبر**»[٣].

ثانياً: إن إبراهيم عليه السلام كان أباً لكثير من الأنبياء فإذا كان كذٰلك فلابد أن تكون منزلة الأبوة في النبوة كمنزلة الإمام خصوصاً وأنه يلقب بأبي الأنبياء، فمن ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وجعل آخرهم محمداً ﷺ وفي نبوَّة

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٤).
(٢) انظر الأساس في التفسير (١/ ٢٦٦).
(٣) النسائي (٥/ ٩٦).

الخاتم إعلاء لمنزلة الآباء وفخر لمنزلة الأبناء، فكان إمام المرسلين من ظهر إمام الأنبياء قبله صلى الله عليهم أجمعين.

ثالثاً: على رأي من يقول: إن الابتلاءات كانت قبل النبوة، فلابد أن يكون ذٰلك المبتلي قويا صابراً لذٰلك اختاره الله تعالى للنبوة فجعله إماماً.

رابعاً: إن إبراهيم تعرض إلى كم كبير من المحن والابتلاءات قبل النبوة وبعدها؛ فكان محط إعجاب وتقدير من قبل النَّاس في وفائه لوالده وصبره على قومه ورحمته بهم.

وإذا أردنا أن نستقصي الأسباب فإن حياة إبراهيم بكل تفاصيلها جعلته إماماً للأنبياء وإماماً للنَّاس ويقول الرازي[١]: (إن الله تعالى لما وعده بأن يجعله للنَّاس إماما حقق له ذٰلك الوعد إلى قيام الساعة فإن أهل الأديان على شدة اختلافها ونهاية تنافيها يعظمون إبراهيم عليه السلام ويتشرفون بالانتساب إليه إما في النسب وإما في الدين والشريعة حتى عبدة الأوثان كانوا معظمين لإبراهيم عليه السلام، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[٢]، وقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[٣]، وقد ذكر أهل التحقيق في معنى الإمامة التي منحها الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام.. أنها النبوة، واستدلوا لما ذهبوا إليه بأدلة منها[٤]:

١- إن قوله: ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يدل على أنَّه تعالى جعله إماماً لكل النَّاس والذي يكون كذٰلك لابد وأن يكون رسولًا من عند الله مستقلًا بالشرع لأنَّه لو كان تبعاً لرسول آخر لكان مأموماً لذٰلك الرسول لا إماماً وحينئذ يبطل العموم.

٢- إن اللفظ يدل على أنَّه إمام في كل شيء والذي يكون كذٰلك لابد أن يكون نبياً ويرد عليه بان إطلاق الإمامة في كل شيء عموم قد يدخل فيه ما هو

---

(١) تفسير الرازي (٤/ ٣٩ - ٤٠).
(٢) سورة النحل: الآية (١٢٣).
(٣) سورة البقرة: الآية (١٣٠).
(٤) انظر: الرازي (٤/ ٣٩).

محذور إذ هناك من يكون إماماً في الفسق والكفر. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[١] لذلك أرى أنَّه كان إماماً للنَّاس كل النَّاس في وجوه الخير لا في كل شيء.

٣- إن الأنبياء عليهم السَّلام، أئمة من حيث يجب اتباعهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٢]، فكانوا قدوة للنَّاس ومناراً يهتدي بهم الخلق.

۞ الرحمة

الرحمة بمعناها الواسع وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه فإن رحمته شملت كله ولذلك كان من صلاة الملائكة له: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[٣] وعن عمر بن الخطاب قدم على رسول الله بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى أن تحلب ثديها، إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها فأرضعته فقال رسول الله ﷺ: «أترون هٰذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله - وهي تقدر على أن لا تطرحه - قال: فالله تعالى أرحم بعباده من هٰذه بولدها» رواه البخاري وقد جاء في الحديث القدسي «**إنَّ رحمتي تغلب غضبي**» ومما حبا الله تعالى به إبراهيم الخليل عليه السلام منحة يتكرر الطلب لها كثيراً على لسان الأنبياء والصالحين من عبادة الله - تلكم هي الرحمة - ذاك لأنها ليست سجية تولد بولادة الإنسان وتنمو بنموه، إنما هي محض اختصاص وهبة من الله تعالى لا ينالها إلَّا من كان أهلًا، لذلك فقد امتن المولى عزَّ وجلَّ على نبيه محمد ﷺ بخلق الرحمة إذ قال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[٤]، ولقد كانت الرحمة من الأماني العالية التي يسعى لها الأنبياء والصالحون والقرآن ينقل لنا جانباً من

(١) سورة القصص: الآية (٤١).
(٢) سورة الأنبياء: الآية (٧٣).
(٣) سورة غافر: الآية (٧).
(٤) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

ذلك فعلى لسان هود يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١]، وعلى لسان موسى عليه السلام قال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٣].

وانشغل المؤمنون من بعد الأنبياء يطلبون رحمة الله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٤]، وهكذا نجد أن العباد وعلى اختلاف مستوياتهم يطلبون رحمة الله إذ أن الإنسان لا يبلغ مراتب الخير دون رحمة الله، وهو ما أشار إليه النبي بقوله: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلّا أن يغمدني الله برحمته**»[٥]، فما لم ينل العبد الرحمة من الله لا ينفعه عمل.

من هنا تظهر لنا مكانة هٰذه المنحة كونها غاية يتنافس من أجلها الأنبياء والصالحون، ولقد صرح القرآن الكريم بهٰذه الهبة إذ منّ على الخليل بها في قوله تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾[٦]، وقبل أن نتعرف على آثار رحمة الله بإبراهيم نتوقف قليلاً عند معنى الرحمة الإلٰهية. يقول العلماء: الرحمة مصدر رحم يرحم وهي العطف والشفقة والمحبة والرحمة هي إيراد إيصال الخير[٧]، وقال بعضهم بأن الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وهي من الله إنعام وإفضال ومن البشر رقة وتعطف[٨].

والرحمة: «خلق لا يتنافى مع التأديب اللازم والعقاب المناسب، والله وهو

---

(١) سورة هود: الآية (٤٧).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٥).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥١).
(٤) سورة المؤمنون: الآية (١٠٩).
(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ١٢٧)؛ مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٥٩).
(٦) سورة هود: الآية (٧٣).
(٧) التعريفات: (٦٤).
(٨) موسوعة أخلاق الدين للشرباصي (١٢٢).

خير الراحمين لم تتناف رحمته الشاملة مع عقوباته التي حدها وزواجره التي توعد بها؛ لأنَّ تشريع الله الحكيم يمضي في الترغيب والترهيب على صراط سواء»[١].

ونظرة متأملة عند حدود الآية التي تحدثت عن رحمة الله لإبراهيم وأهل بيته يمكن كشف بعض الملامح الأخلاقية التي سببت الرحمة للخليل وأهل بيته.

أولًا: هٰذه المنحة جاءت بعد استغراب أهل بيته كون الأمل الذي يسعون من أجله قد مضى، فكان الجواب أن هٰذا التأخير بقدر الله وأنه من رحمته عليهم وأن من آثار رحمته، أن بُشرا بإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

ثانياً: أن الآية أخبرت في معرض الرَّد على استغراب زوجه سارة، أن رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت وهنا يمكن الإشارة إلى أن الرحمة أضيفت إلى الله مباشرة واقترنت معها البركة، وفي ذٰلك دلالة تأكيد على الاختصاص.

ثالثاً: أن هٰذه المنحة تكشف لنا عن مزايا إبراهيم الأخلاقية في صلته مع ربه، فالقرآن يكشف لنا بأن الرحمة تحيط بعباد الله المحسنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢]. فإذا كانت الرحمة قريبة من المحسنين فرحمة الله قد استغرقت أهل البيت مما يدل على أن رتبة البيت وأهله أعلى من ذٰلك يقول ابن قيم الجوزية: (إن هٰذه الآية لها دلالات، دلالة بالمنطوق ودلالة بالمفهوم ودلالة بالإيماء، فدلالة المنطوق هي قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالة المفهوم هو أن هٰذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالة الإيماء هو أن الرحمة بعيدة عن غير المحسنين[٣]).

رابعاً: أخبر القرآن الكريم بصلاة الله وملائكته على النبي محمد ﷺ قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[٤]، وفي معنى صلاة الله والملائكة على النبي ﷺ يقول

(١) المصدر السابق (١/ ١٢٣).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٦).
(٣) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية.
(٤) سورة الأحزاب: الآية (٥٦).

العلماء: (إن الصَّلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن النَّاس دعاء)[١]، فإذا كانت الصَّلاة من الله رحمة؛ فقد بين النبي نوع تلك الرحمة، فحينما سأله نفر من أصحابه: (قد علمنا السَّلام عليك فكيف الصَّلاة عليك يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[٢].

ولعل في ذٰلك إشارة إلى نوع الرحمة التي يطلبها النبي أن تكون كتلك الرحمة التي خص بها الخليل إبراهيم عليه السلام وذٰلك يدل على حجم تلك الرحمة التي نالها الخليل بحيث يطلبها النبي أن تكون صلاتهم في الدعاء.

خامساً: إن هٰذه المنحة تكشف لنا عن منزلة أخرى من منازل الخليل من حيث علاقته مع الله وهي التقوى والإيمان حيث يخبر القرآن الكريم أن إلٰه كتب على نفسه الرحمة، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ﴾[٣]، وهٰذه الرحمة قد أخبر المولى بأنَّه سيكتبها للمتقين من عباده، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[٤]؛ ولأن الخليل كذٰلك فقد نال الرحمة.

سادساً: إن هٰذه المنحة تكشف لنا عن سماحة الخليل ورأفته في أخلاقه ورحمته بالناس لأن رحمة النَّاس شرط لنزول الرحمة الإلٰهية وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٥]، وقال: «**الراحمون**

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٦).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٠٨)؛ مسلم بشرح النووي (٤/ ١٢٦)؛ المنتقى من السنن عن رسول الله ﷺ لابن جارود أبي محمد عبد الله بن الجارود (ت٣٠٧هـ)، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت (٦٢)؛ وأيضاً: فضل الصَّلاة على النبي ﷺ، لإسماعيل بن إسحاق القاضي (ت٢٨٢هـ)؛ ط١، دار رمادي للنشر، السعودية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م (١٥٦).

(٣) سورة الأنعام: الآية (١٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٦).

(٥) البخاري مع الفتح (٣/ ١٥١)؛ مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٢٥)؛ والطبراني في مكارم الأخلاق (٥١ - ٥٢).

يرحمهم الرحمٰن إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[١].

وهكذا يتجلى لنا عن طريق هٰذه المنحة أخلاق ومنازل جسدها الخليل في دعوته وحياته حتى حباه الله بالرحمة وأهل بيته، أمَّا غلاظ الإكبار من الجبارين والمستكبرين فهم في الدرك الأسفل من النَّار، وفي الحديث الشريف أن أبعد النَّاس من الله تعالى القاسي القلب[٢].

۞ الملك العظيم

في هٰذا المقام يطالعنا القرآن الكريم بجملة من المنح والهبات لسيدنا إبراهيم عليه السلام وذٰلك في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٣]، وعند الوقوف في ظلال الآية يمكن الإشارة إلى الأمور الآتية:

أولًا: إن الآية ليست صريحة في منح الخليل هٰذه الأمور بشكل خاص، وإنما هي بسببه ومن بركاته على ذريته حيث طلب الإمامة والنبوة في ذريته، فقال له تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾[٤]، وقد أعطى الله تعالى الإمامة والنبوة لكثير من ذريته من بني إسرائيل.

ثانياً: ذكرت الآية نوعين من الهبات وهما الكتاب والحكمة وفي ذٰلك يقول أهل التفسير[٥]، إن الكتاب هو التوراة التي أنزلها الله على موسى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٦]، ويرى بعضهم أن الكتاب إشارة لظواهر الشريعة[٧]، أمَّا عن الحكمة فيرى المفسرون بأنها الموعظة

(١) مسند أحمد بن حنبل (٢/ ١٦٠)؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٩)؛ والحميدي في مسنده (٢/ ٢٦٩)؛ والدارمي، والرد على الجهمية (٤٠).
(٢) رواه الترمذي.
(٣) سورة النساء: الآية (٥٤).
(٤) سورة البقرة: الآية (١٢٤).
(٥) الأساس في التفسير (٢/ ١٠٨٥)؛ وانظر: ابن كثير (١/ ٤٨٧).
(٦) سورة الأنعام: الآية (٩١).
(٧) تفسير الرازي (١٠/ ١٣٣).

والفقه[١] والعمل بمقتضى السنن[٢]، وقيل هي النبوة أو إتقان العلم والعمل، أو فهم الأسرار المودعة في الكتاب[٣]، ويرى الإمام الرازي أنها إشارة إلى أسرار الحقيقة وذلك هو كمال العلم[٤].

ثالثاً: إن الآية كررت لفظ الأنبياء زيادة في التأكيد على ما حباهم الله تعالى به أو بيان آخر لهبة أخرى، إذ يقول المفسرون بأن الله تعالى قد بارك في ذرية الخليل فجعل منهم الأنبياء وأضاف إليهم الملك (وقد حصل في أولاد الخليل جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك)[٥]، ومنهم سيدنا يوسف، ونقل القرآن قوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[٦]، وعن سيدنا سليمان قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[٧].

رابعاً: ما وصفت به الآية هٰذا الملك كونه عظيماً وقد بين لنا أن يوسف عليه السلام كان على خزائن الملك وكان لسيدنا سليمان أن سخر الله له الملك والرياح وتكليم الحيوانات الأخرى وتسخير الجن له، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سوأري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فرددته خاسئاً»[٨]. وهكذا تبين لنا أن الله قد أغدق العطاء للخليل ممتداً إلى من بعده من الذرية، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ

---

(١) الأساس في التفسير (٢/ ١٠٨٥).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٧).
(٣) تفسير صفوة البيان (١١٨).
(٤) تفسير الرازي (١٠/ ١٣٣).
(٥) انظر: تفسير الرازي (١٠/ ١٣٣).
(٦) سورة يوسف: الآية (١٠١).
(٧) سورة ص: الآية (٣٥).
(٨) صحيح البخاري مع الفتح (٦/ ٤٥٧ - ٤٥٨).

ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١]. يقول ابن كثير: (هٰذه خلقة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلًا وجعله للنَّاس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلَّا هو من سلالته)[٢].

۞ الخلة

من المقامات العالية والرتب العظيمة التي وهبها المولى عزَّ وجلَّ لسيدنا إبراهيم عليه السلام رتبة الخلة حيث قال جلَّ وعلا: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[٣]، ولعل الحديث عن هٰذا الموضوع لا يعد من قبيل الوصف الذي ورد ذكره في القرآن عن سيدنا إبراهيم، إنما هو أقرب لهبة عظيمة من الله جزاءً بكل ما تحلى به من صفات وأخلاق مر ذكرها سابقاً، ومن أجل الحديث عن هٰذه المنحة وبيان ما تضمنته من تكريم يجدر الإشارة إلى أمرين:

الأول: معنى الاتخاذ.

الثاني: معنى الخلة واسبابها.

الأمر الأول: معنى الاتخاذ:

إن للألفاظ القرآنية دلالات تختلف في المراد حسب اختلاف اللفظ وإن ترادفت في بعض الأحيان، ولعل لفظ الاتخاذ الوارد بشأن سيدنا إبراهيم لم يكن كأي لفظ آخر من الألفاظ التي تشابه أو ترادف معنى الاتخاذ، كألفاظ: جعل وصار وكان وحتى أخذ، التي هي أصل الاتخاذ، وهٰذا ما حدا بي أن أتأمل في الآية انطلاقاً من هٰذا المعنى، ومن أجل بيان الأمر نتعرف على معنى الاتخاذ في اللغة العربيَّة لأنَّه أبلغ في فهم المقصود.

المعنى اللغوي: تقول العرب: اتخذ القوم يتخذون اتخاذا، وذٰلك إذا تصارعوا فأخذ كل منهم على مصارعه أَخذَةً يعتقله بها وجمعها أُخُذ. وأصل

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٧).
(٣) سورة النساء: الآية (١٢٥).

الكلمة: أخذ، والأخذ خلاف العطاء، وهو التناول[١].

إذاً فالأخذ يدور بين العطاء والتناول، من حيث أن العلاقة بينه وبين ربه قائمة على العطاء لأنها بين معطي وآخذ، ولعل الاتخاذ أبلغ في المعنى من الجعل أو الصيرورة؛ لأن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى خصوصاً إذا كانت هٰذه العلاقة بين العبد وربه، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الاتخاذ والخلة وردت مقترنة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[٣]، ووردت مستقلة في بعض الأحيان، فقد جاء على لسان الشيطان قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[٤]، وقول الله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾[٧].

يقول أهل التفسير في بيان المراد من الاتخاذ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾، أي لبالغوا في إظهارك وبينوا للنَّاس أنك موافق لهم، ولأظهروا لك الولاء والصفاء[٨].

إذاً ففي الاتخاذ نوع من الخصوص والمبالغة والنصر من الله ومن الناس، وبعد أن تعرفنا على هٰذا المعنى نتحدث عن الأمر الثاني والذي يتعلق بمعنى الخلة لغةً وشرعاً.

الخلة: (الصداقة المختصة التي ليس فيها خلَل تكون في عفاف الحب،

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة: أخذ (٣/ ٤٧٢).
(٢) سورة الإسراء: الآية (٧٣).
(٣) سورة الفرقان: الآية (٢٨).
(٤) سورة النساء: الآية (١١٨).
(٥) سورة الجن: الآية (٣).
(٦) سورة المائدة: الآية (٥٨).
(٧) سورة المؤمنون: الآية (٩١).
(٨) انظر: تفسير الرازي (٢١)؛ وانظر: فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٤٧).

وجمعها خلال وهي الخَلالة والخِلالة والخُلولة، قال الزجاج: والخُلَّة الصداقة، يقال: خالَلت الرجل خلالًا، ومنه قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾[١] والخليل الصديق، فعيل بمعنى مُفاعِل، وقد يكون بمعنى مفعول، قال: وإنما قال ذٰلك لأن خُلته كانت مقصورة على حب الله تعالى)[٢].

المعنى الاصطلاحي: قد لا يتجاوز المعنى الاصطلاحي حدود المعنى اللغوي إلَّا في نطاق التفسير، إذ جاء في بيان الأمر أن الخليل هو الذي يخاللك، أي يوافقك في خلالك أو يداخلك خلال منزلك أو يسد خللك كما يسد خلله، فالخلة صفاء مودة توجب الاختصاص بتخلل الأسرار والمحبة أصفى لأنها من حبة القلب[٣].

والخلة مقصورة على حب الله تعالى فليس فيها لغيره متسع ولا شركة من مَحَاب الدنيا والآخرة وهٰذه حال شريعة لا ينالها أحد بكسب ولا اجتهاد فإن الطباع غالبة، وإنما يختص الله بها من يشاء من عبادة مثل سيد المرسلين[٤]، وقد جعل بعضهم الخليل مشتقاً من الخُلة وهي الحاجة والفقر، فسر الخلة على أنني أبرأ من الاعتماد والافتقار إلى أحد غير الله عزَّ وجلَّ[٥]، وقد نقل الإمام الرازي تفصيل ما قاله أهل التفسير في بيان المراد من الخلة فذكر وجوهاً[٦]، هٰذا وقد ورد عن النبي ﷺ بشأن أبي بكر: «لو كنت متخذاً خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر»[٧]، وقوله ﷺ: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[٨]،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣١).
(٢) انظر: لسان العرب، مادة: خلل (١١/ ٢١٦).
(٣) تفسير النسفي (١/ ٣٥٢)؛ وانظر: تفسير الأساس (٢/ ١١٩٠).
(٤) انظر: لسان العرب (١١/ ٢١٧).
(٥) نفس المصدر (١١/ ٢١٧).
(٦) انظر: تفسير الرازي (١١/ ٥٩).
(٧) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٥١ - ١٥٣)؛ مسند أحمد (١/ ٣٧٧)؛ الحميدي (١/ ٦٢)؛ البغوي بشرح السُّنَّة (١٤/ ٧٧ - ٧٨).
(٨) مسند أحمد (٢/ ٣٠٣)؛ أبو داود (٤/ ٢١٦)؛ والحاكم في المستدرك (٤/ ١٧١)؛ صححه النووي في رياض الصالحين (١٩٥).

فبين بهٰذا الحديث أن الخلة توجب اتباع المحبوب في كل شيء.

أسباب الخلة:

وبعد أن تعرفنا على الوجوه التي تتعلق بمعنى الخلة ننتقل للحديث عن الأسباب التي رقت بسيدنا إبراهيم ليصطفيه الله خليلًا وحبيباً، وعند البحث في هٰذه الأسباب تذكر كتب التفسير أموراً يرشحها البعض كأسباب لمكانة الخلة ضمن ذكر أسباب النزول والتي يمكن إجمالها بما يأتي:

أولًا: يقول الرازي: (قيل: لما أطلع الله إبراهيم عليه السلام على الملكوت الأعلى والأسفل ودعا القوم مرة بعد أخرى إلى توحيد الله، ومنعهم عن عبادة النجم والقمر والشمس ومنعهم عن عبادة الأوثان، ثم سلم نفسه للنيران وولده القربان وماله للضيفان، جعله الله إماماً للخلق ورسولًا إليهم، وبشره بأن الملك والنبوة في ذريته، فلهٰذه الاختصاصات سماه خليلًا، لأن محبة الله لعبده عبارة عن إرادته لإيصال الخيرات والمنافع إليه)[1].

ثانياً: ورد في كتب التفسير أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلًا، لإطعامه الطعام وإفشائه السَّلام وصلاته بالليل والناس نيام وقيل أوحي إليه إنما اتخذك الله خليلًا لأنك تحب أن تُعطي ولا تعطى، وفي رواية: لإنك تعطي النَّاس ولا تسألهم[2]، ولعل هٰذا القول لا يختلف كثيراً عن الكلام الذي مر قبل قليل والذي يذكر سبباً من أسباب الخلة هو إطعامه الطعام.

ثالثاً: ما قاله شهر بن حوشب أن ملكاً هبط في صورة رجل وذكر اسم الله بصوت رخيم شجي، فقال إبراهيم عليه السلام: اذكره مرة أخرى، فقال: لا أذكره مجاناً، فقال: مالي لك كله، فذكره الملك بصوت أشجى من الأول، فقال: اذكره ثالثة ولك أولادي، فقال الملك: أبشر فإني ملك ولا أحتاج إلى مالك وولدك، وإنما كان المقصود امتحانك، فلمَّا بذل المال والأولاد على سماع ذكر الله

(١) تفسير الرازي (١١/ ٥٨).
(٢) تفسير النسفي (١/ ٣٥٢).

اتخذه الله خليلًا[١].

رابعاً: ما رواه طاووس عن ابن عباس أن جبريل والملائكة لما دخلوا على إبراهيم في صورة غلمان حسان الوجوه وظن الخليل أنهم أضيافه وذبح لهم عجلًا سمينا وقربه قال: كلوا على شرط أن تسموا الله في أوله وتحمدوا في آخره، فقال جبريل: أنت خليل الله[٢].

خامساً: ما يراه الإمام الرازي[٣] وهو أن جوهر الروح إذا كان مضيئاً مشرقاً علوياً قليل التعلق باللذات الجسمانية والأحوال الجسدانية، ثم انضاف إلى مثل هٰذا الجوهر المقدس الشريف أعمال تزيده صقالة عن الكدورات الجسمانية أفكار تزيده استنارة بالمعارف القدسية والجلايا الإلٰهية، صار هٰذا الإنسان متوغلًا في عالم القدس والطهارة متبرئاً عن علائق الجسم والحس، ثم لا يزال هٰذا الإنسان يتزايد في هٰذه الأحوال الشريفة إلى أن يصير بحيث لا يرى إلَّا الله، ولا يسمع إلَّا الله، ولا يتحرك إلَّا بالله، ولا يسكن إلَّا بالله، ولا يمشي إلَّا بالله، فكان نور جلال الله قد سرى في جميع قواه الجسمانية وتخلل فيها وغاص في جوهرها، وتوغل في ماهيتها، فمثل هٰذا الإنسان هو الموصوف حقاً بأنَّه خليل لما أنَّه تخللت محبة الله في جميع قواه، وإليه الإشارة بقول النبي ﷺ في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي عصبي نوراً**»[٤]، وأرى أن هٰذا التفسير لا يعتمد على دليل وإن كان اعتماده على إشراقات عقلية تتصل بالموضوع إلَّا أنَّه لا يعول عليه لعدم الجزم بأنَّه السبب حقيقة.

سادساً: ويرى بعضهم أن السبب في الخلة أن إبراهيم لما رمي بالمنجنيق وصار في الهواء أتاه جبريل فقال: ألك حاجة، قال: لا، فانتصر له سبحانه فأنقذه من النار[٥].

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١١/ ٥٨)؛ وانظر: تفسير روح البيان للبروسوي (٢/ ٢٩٣).
(٢) انظر: تفسير الرازي (١١/ ٥٩).
(٣) المصدر نفسه (١١/ ٥٩).
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٤٥)؛ ومسند أحمد (١/ ٢٨٤)؛ والنسائي (٢/ ٢١٨).
(٥) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٥٧).

سابعاً: يرى بعضهم أن إبراهيم استضاف رؤوساء الكفار وأهدى لهم وأحسن إليهم، فقالوا: ما حاجتك، فقال: حاجتي أن تسجدوا لله سجدة، فسجدوا، فقال: اللَّهم إني فعلت ما أمكنني فافعل اللَّهم ما أنت أهل لذلك، فوفقهم الله تعالى للإسلام، فاتخذه الله خليلًا لذلك[١].

ويرى الباحث أن كثيراً من هذه الروايات إنما تتحدث - إن صحت - عن أخلاق إبراهيم عليه السلام، بشكل مفصل وهي بمجموعها يمكن أن تكون سبباً للخلة وإن كنت أرى أن الأمر قد يختلف بعض الشيء، وإذا كان لمثلي يجوز له أن يدلو بدلوه فيمكنني القول بأن الخلة كما تبين من تعريفها لغة وشرعاً قائمة على العطاء المتبادل بين الأخلاء وهو ما أشار إليه القرآن بقوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، فمفهومها أن الأخلاء بعضهم لبعض حبيب إلَّا الكافرين.. ومنه يمكن القول بأن الخليل قد سعى إلى تنفيذ شرع الله بكل جدية، بل واستسلم لأوامر الله ونفذ التكاليف بالرغم مما فيها من مشقة تتعلق بنفسه عندما ألقي في النَّار وبزوجه عندما أمر بإلقائهم في الصحراء، وبولده عندما أمر بذبحه؛ فتلك فتن ابتلي بها الخليل فما استفسر أو تنكر أوتلكأ في تنفيذها، ولقائل أن يقول بأن هذا شأن الأنبياء مع الله، نقول: نعم فلقد دعا بعضهم على قومه واستعجل غيره، وأشفق بعضهم على ولده، كما هو الأمر مع سيدنا موسى[٣] ونوح[٤] ويونس[٥]، أمَّا الخليل فكان حبه لربه فوق التعلق

---

(١) نفس المصدر السابق (٥/ ٢٥٧).

(٢) سورة الزخرف: الآية (٦٧).

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، سورة يونس: الآية (٨٨).

(٤) ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، سورة هود: الآيات (٤٥ - ٤٦).

(٥) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، سورة الأنبياء: الآية (٨٧).

البشري وفوق مستوى الحياة الدنيوية فاستحق عن جدارة أن يكون خليل الله، وبالمقابل فلقد كافأ المولى خليله بالنصر والمؤازرة في كل ما تعرض له من شدائد ومحن فكان إبراهيم خليل الله، هٰذا من باب، ومن باب آخر فإن المتتبع لأخلاق وصفات الخليل التي ورد ذكرها وبيانها في القرآن الكريم، ليس من السهل أن تتجمع في أي شخص حتى وإن كان نبياً ولعل هٰذا ما جعل القرآن يحدثنا عن أخلاقه بالتفصيل في كونه قد جسد تلك الأخلاق وعاشها، فلمَّا تخلق إبراهيم بأخلاق الله أكرمه الله تعالى بالخلة تمجيداً لسعيه وتعظيماً لأخلاقه.

الفصل الرابع

صحف إبـراهيم عليه السلام

صحف إبراهيم عليه السلام

تكليم الله تعالى للإنسان حددته الآية القرآنية بقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[١]، ولقد أنزل الله تعالى على بعض من أنبيائه كتباً وأنزل على بعضهم صحفاً وعلى البعض الآخر كتاباً وصحفاً، وإذا كان القرآن الكريم قص علينا بعض من نزل عليهم شيء من ذلك ولم يقصص أخبار البعض الآخر، فإن القرآن الكريم قد أبان بأن إبراهيم عليه السلام ممن أنزلت عليه (صحف) وقد جاء ذكر صحف إبراهيم عليه السلام في سورتين من سور القرآن الكريم حيث جاء في سورة النجم قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۞ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾[٢]، وقال تعالى في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٣]. فما هذه الصحف وبم جاءت به من تعليمات؟

فنقول وبالله التوفيق:

الصحف جمع صحيفة، وهي كل شيء عريض يمكن الكتابة عليه، ومن ثم سمي الكتاب صحيفة لأنَّه كتب عليه[٤]، وقد سمى القرآن الكريم صحف موسى في آية أخرى بالألواح، فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[٥]،

---

(١) سورة الشورى: الآية (٥١).
(٢) سورة النجم: الآيات (٣٦ - ٣٧).
(٣) سورة الأعلى: الآيات (١٨ - ١٩).
(٤) انظر: القاموس المحيط (٣/ ١٦٦).
(٥) سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

واللوح هو كل صحيفة عريضة يمكن الكتابة عليها أيضاً[١].

أمَّا صحف إبراهيم التي أخبر القرآن عنها فهي عشر صحف نزلت على إبراهيم كما جاء في الحديث عن أبي ذر قال قلت: يا رسول الله، كم أنزل الله تعالى من كتاب؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيت خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، قلت: يا رسول الله وما كانت صحف إبراهيم؟ قال: أمثال، كلها أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من فم كافر، وكان فيها أمثال وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه... قال: قلت: يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك. قال: نعم، اقرأ يا أبا ذر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۞ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۞ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[٢][٣]، ولنلخص آراء المفسرين في الوارد من صحف إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، وكما يأتي:

أولًا: قال: بوصفهم أن المراد بقوله تعالى (إن هٰذا) أي القرآن، ويعني أن كل المعاني التي جاء بها القرآن الكريم قد جاءت بها الصحف الأولى مستدلين على ذٰلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٤][٥].

ثانياً: قال آخرون: إن هٰذا، أي ما ورد في السورة كلها: ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ

---

(١) القاموس المحيط (٢/ ٢٥٦).

(٢) سورة الأعلى: الآيات (١٤ - ١٩).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ينظر: الترغيب والترهيب (٣/ ١٨٨/ إبراهيم)؛ وانظر: تاريخ الطبري (١/ ٣١٢ - ٣١٣)؛ القرطبي (٢٠/ ١٨)؛ الآلوسي (١٥، ٣/ ١٤١).

(٤) سورة الشعراء: الآية (١٩٦).

(٥) الآلوسي (م١٥، ٣٠/ ١٤١).

﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزلت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، قال النبي ﷺ: «كان كل هٰذا، أو كان هٰذا، في صحف إبراهيم وموسى»، وقد استبعد الآلوسي هٰذا الرأي[1].

ثالثاً: وذهب آخرون إلى أن الإشارة في قوله تعالى (إن هٰذا)، إلى الآيات: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وهٰذا ما اختاره الطبري[2] وقال عنه ابن كثير: (والذي اختاره حسن قوي)[3]، هٰذا ما قالوه في سورة الأعلى ومنهم من قال أن الإشارة مقتصرة على قوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، إذ الإشارة ترجع إلى أقرب المذكورات[4]، أمَّا سورة النجم فذكروا أن ما جاءت به صحف إبراهيم وموسى تبتدئ من قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[5] وتنتهي بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[6]، والآيات هي: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾[7]. فلنتبع هٰذه الآيات لنصل معها إلى القول الفصل فيما قيل من أنها في صحف إبراهيم وموسى:

أولًا: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

---

(١) الآلوسي (م١٥، ٣٠/ ١٤١).
(٢) انظر: الطبري طبعة غير محققة (١٥، ٣٠/ ١٥٨).
(٣) ابن كثير (٤/ ٥٠٣).
(٤) الرازي (٣١/ ١٤٩).
(٥) سورة النجم: الآية (٣٨).
(٦) سورة النجم: الآية (٥٥).
(٧) سورة النجم: الآيات (٣٦ - ٥٥).

قال المفسرون: إن شرائع الأقوام قبل إبراهيم كانت تعتمد أخذ بعض النَّاس بجريرة غيرهم فمتى أجرم الأب أخذ الابن أو الزوجة بجريمته، فأبان الله لسيدنا إبراهيم أن حكم الله في أن الإنسان يتحمل جريرة نفسه وأن لا يؤخذ الإنسان بذنب غيره[١]، وهٰذا أمر أقرته الشرائع وهو يتماشى مع المنطق السليم.

ثانياً: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾

وهنا قال بعض المفسرين: هٰذا ما كان في شريعة إبراهيم وموسى، أمَّا في شريعتنا فقد يستفيد الإنسان من سعي غيره، وقد أطالوا الوقوف عندها، وقال بعضهم: إنها منسوخة في شريعتنا وأن القرآن أوردها على أنها من شريعة إبراهيم وموسى، ومنهم من قال إن هٰذه الآية تدلل على أنَّه لا يجوز للإنسان أن يقوم بالأعمال التعبدية عن غيره إلَّا ما ورد الشرع به، وهناك من يقول: المراد بالإنسان هو الكافر وهٰذا لا ينفعه سعي غيره، أمَّا المؤمن فينفعه عمل الآخرين عنه، والذي يعنينا هنا القول إنها مما أنزل في صحف إبراهيم عليه السلام وحتى عند من يقول إن هٰذا مما جاءت به شريعة النبي عليه الصَّلاة والسَّلام فأقول: (إن شرع من قبلنا شرع لنا) قاعدة أخذ بها كثير من الأصوليين ما لم يرد في شرعنا ما يخالفها ومن الممكن أن تكون قد جاءت بشريعة إبراهيم فأقرتها شريعتنا أو لم تأت بمعارض لها فأصبحت من شريعتنا[٢].

ثالثاً: إن الآيات: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۞ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۞ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۞ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۞ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۞ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۞ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾، فإنها جاءت بأخبار عن اليوم الآخر وهو ما أقرته الشرائع السماوية كلها فلا غرابة أن تكون صحف إبراهيم قد صرحت بكل ذٰلك.

رابعاً: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾، أن تكون هٰذه الآية وردت في صحف إبراهيم أمر في غاية الأهمية، بل لعل وجود هٰذه الآية هو الختم الذي يقول إن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٧٢)؛ تفسير البيضاوي (٢/ ٤٤٢)؛ تفسير الآلوسي (٢٧/ ٦٦).
(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٩/ ١٥)؛ تفسير الآلوسي (٢٧/ ٦٦ - ٦٧).

كل هٰذه الآيات جاءت بها صحف إبراهيم وموسى، ذٰلك أن قوم إبراهيم وكما هو معروف عنهم وذكرناه مراراً كانوا يعبدون الكواكب، والشعرى هي من أبرز الكواكب التي عبدوها، لذٰلك جاءت صحف إبراهيم لتؤكد لهم أن هٰذا الكوكب الذي تعبدونه هو خانع ذليل للرب العظيم وهو الله تعالى، ولعلي لا أتفق مع ما قاله بعض المفسرين من أن العرب كانت تعبد الشعرى، لذٰلك خصه القرآن الكريم بالذكر، فالعرب في زمن الرسول اشتهر عندهم عبادة الأصنام ومن اشتهر عندهم عبادة الكواكب هم قوم إبراهيم وإذ عبد بعض العرب الكواكب فهم قلة لا يقارنون بعبدتها من قوم إبراهيم عليه السلام.

خامساً: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾

هنا قد يتساءل البعض: هل أن عاداً وثمودَ سبقوا عصر إبراهيم لتتمكن من القول إن صحف إبراهيم يمكن أن تتحدث عنهم أم أنهم جاءوا بعد إبراهيم فيكون الخطاب موجهاً إلى الرسول محمد ﷺ؟

والجواب:

لقد ذكر بعض المؤرخين أن عاداً الأولى وثمودَ قد سبقوا عصر إبراهيم وهلكوا قبله[1]، لذٰلك فورود هٰذه الأخبار عنهم في صحف إبراهيم أمر ممكن وطبيعي، أمَّا عند من يرى أن عاداً وثمودَ يمكن أن يكونوا بعد إبراهيم، فهٰذا يعني أن صحف إبراهيم لم تتعرض لهم وإنما ورد ذكرهم في القرآن الكريم أو في صحف موسى فقط، على أن الرأي الراجح أن عاداً وثمودَ سبقوا عصر إبراهيم فورود أخبارهم أمر غير مستبعد.

سادساً: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾

يقول المفسرون: أن المؤتفكة هي قرى قوم لوط، وإذا كانت كذٰلك فلا إشكال في ورودها في صحف إبراهيم بعد أن أخبرنا القرآن الكريم أن تدميرها

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢١٦) وما بعدها.

كان في حياة إبراهيم عليه السلام، وأن الملائكة الموكلين بتدميرها مروا به وقدم لهم الطعام[١].

من كل ما تقدم أرى أن الرأي القائل بأن كل هٰذه الآيات قد وردت في صحف إبراهيم قول سليم وسياق الآيات يسانده ويدل عليه، بعد هٰذا أرى أن من المناسب أن أورد التعليمات التي جاءت بها صحف إبراهيم مجملة في نقاط آخذين بنظر الاعتبار أوسع الأقوال المعتمدة على دليل، وصحف إبراهيم فيها مناهج علمية ومناهج عملية كما يقول الشهرستاني: (أما العمليات فتقرير كيفية الخلق والإبداع وتسوية المخلوقات على سنة نظام وقوام تحصل فيه حكمة الأزلية وتنفذ فيه مشيئة السرمدية، وأمَّا العمليات فتزكية النفوس دون الشبهات وذكر الله تعالى بإقامة العبادات ورفض الشهوات الدنيوية وإيثار السعادات الأخروية، ولن يحصل البلوغ إلى كمال الميعاد إلَّا بإقامة هٰذين الركنين، أعني الطهارة والشهادة والعمل كل العمل بعد هٰذين النوعين وذٰلك لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۞ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾)[٢]؛ فصحف إبراهيم فيها العقائد وفيها الأخبار والمواعظ وفيها التشريعات العملية.

١ - العقائد.

أ - اليوم الآخر: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[٣]، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٤].

ب - الحساب: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[٥].

ج - البعث والنشور: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٧٩)؛ انظر: تفسير القرطبي (٧٨/ ١٧)؛ وانظر: تفسير الآلوسي (٧/ ٧٠).
(٢) الملل والنحل (١/ ٢٢٩).
(٣) سورة النجم: الآية (٤٢).
(٤) سورة الأعلى: الآية (١٧).
(٥) سورة النجم: الآية (٤١).
(٦) سورة النجم: الآية (٤٧).

٢ - الأخبار والمواعظ.

أ - ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[1].

ب - ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2].

ج - أيها الملك المتسلط المبتلي المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر.

د - على العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلًا على شأنه حافظاً للسانه فإن من حسب كلامه من عمله أقل الكلام إلَّا فيما يعنيه.

هـ - على العاقل أن لا يكون ظاعناً إلَّا في ثلاث: تزود لمعاد، ومَرَمَّة لمعاش، ولذة في غير محرم.

٣- الأعمال.

أ - ألا تزر وازرة وزر أخرى.

ب - وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى.

ج - قد أفلح من تزكى.

د - وذكر اسم ربه.

هـ - فصلى.

و - ساعة يناجي فيها ربه.

ز - ساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها في صنع الله عزَّ وجلَّ إليه.

ح - ساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

---

(١) سورة النجم: الآيات (٥٠ - ٥٣).

(٢) سورة الأعلى: الآيات (١٦ - ١٧).

هٰذا ما استخلصناه من الآيات التي قال المفسرون إنها في صحف إبراهيم ومن الأحاديث التي وردت كما في صحف إبراهيم، وهٰذا لا يعني أن هٰذا هو ما جاءت به الصحف، ويقيناً أنها أشمل من هٰذا بكثير لكنا آثرنا أن نقف عند الوارد ولا نتخبط تخبطاً عشوائياً.

الباب الثالث

الدعوة عند إبراهيم عليه السلام

توطئة

أفنى شيخ الحنيفية عليه السلام مجاهداً لإبلاغ رسالة ربه، وقد مرت دعوته بمرحلتين أساسيتين افترق منهجه فيهما، وأعني مرحلة ما قبل الهجرة، وتبدأ من أول يوم كلف بالرسالة، وتنتهي بعد خروجه من النَّار وقوله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾[1]. والمرحلة الثانية: وهي مرحلة ما بعد الهجرة، وتبدأ من انطلاقه مرتحلًا عن بلاد بابل باتجاه الأرض المقدسة، وتنتهي عند التحاقه بالرفيق الأعلى، وللوقوف على منهجه في كل من المرحتلين جعلت هٰذا الباب فصلين، الفصل الأول: في دعوته قبل الهجرة وهي مرحلة التوحيد، والفصل الثاني: في دعوته بعد الهجرة، وهي مرحلة تفاصيل دينه.

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).

الفصل الأول

الدعوة قبل الهجرة

تمهيد

أورد القرآن الكريم منهج إبراهيم في دعوته وأساليبه التي اعتمدها في ذٰلك بالتفصيل، وقد تبين لنا مما أورده القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام لم يسلك منهجاً واحداً ولا أسلوباً معيناً في الدعوة، بل بذل كل ما يملكه الإنسان من وسائل لعله يأخذ بحجز قومه فلا يهلكون، فتارة نراه يدعوهم إلى الله متوددا إليهم داعياً لهم وتارة يدعوهم بنوع من الشدة والعنف لعل ذٰلك يجدي نفعاً بعد أن عجز اللين عن ذٰلك، ثم يصل الأمر أن يحمل المعول ليهدم الطواغيت التي عبدوها من دون الله لعلهم يرتدعون، كل هٰذا أورده القرآن الكريم، غير أنَّه لم يرتب ذٰلك ترتيباً تاريخياً ولم يقل لنا أي المناهج اعتمدها إبراهيم أولًا.

ولما كان مرتكز دعوة إبراهيم عليه السلام الحوار العقلي حتى عند تكسير الأصنام، ولما كان المنطق العقلاني والمنهج العام للأنبياء أن يبدؤا دعوتهم باللين كما قال الله لموسى وهارون عليهما السَّلام حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1]، وكما يتضح لنا من سيرة رسول الله ﷺ مع قومه لذا رأيت أن أورد تدرج إبراهيم في دعوته مبتدئاً من اللين أو ما قبله من الوصف المجرد عن العواطف والإثارة وانتهاء بتحطيم الأصنام، فأقول وبالله التوفيق.

(١) سورة طه: الآية (٤٤).

المبحث الأول
بدء الدعوة

المطلب الأول: دعوته لأبيه

النبوة خير وجهاد، وأولى النَّاس بخير النبي أهله وأجدر النَّاس بتحمل أعباء الجهاد في سبيل النبوة ذوو النبي وأقاربه، فمن الطبيعي أن يبدأ النبي دعوته إلى الله تعالى بأهل بيته ثم أقاربه ثم الأبعدين، وفي مثل هٰذا جاء قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]. وهكذا كان الأمر مع سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ فلقد ابتدأ دعوته بأبيه متلطفاً به حاثاً له أن يتوجه إلى الخالق العظيم، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[2]، لقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل واحتج عليه أبدع احتجاج، بحسن أدب وخلق جميل، لئلا يركب متن المكابرة والعناد[3]، ثم ابتدأ خطابه لأبيه آزر بالنداء يسمعه الأب من ابنه، هو (يا أبتِ)، كي يستثير فيه كل عواطف الأبوة لتلبية طلبات الابن، فما أن أصاغ الأب يسمع ما يريد ولده فإذا بإبراهيم يوجه سؤالًا قد يكون مفاجئاً لأبيه لكنَّه ملفت للنظر: لم تعبد ما لا يسمع ولا

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٢١٤).

(٢) سورة مريم: الآيات (٤١ - ٤٥).

(٣) انظر: تفسير القاسمي - محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ)، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م (١١/ ١٢٨).

يبصر ولا يغني عنك شيئا؟ وقبل أن يجيب الأب، ثنى الابن بأمر يكون في متعارف النَّاس مفرحاً للأب، وهو إحاطة ابن بمعلومات لم يتسن للأب معرفتها: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، ثم أكد هٰذا الأمر بأمر آخر يدر عطف الوالد وهو أن يكون الابن خائفاً على أبيه مشفقاً عليه[١]: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أراد إبراهيم عليه السلام من كل هٰذا أن يستجيب الأب للدعوة ويؤمن بالله الواحد لا إله غيره، لكن يبدو أن الأب قد تشرب قلبه الكفر حتى غطى كل العواطف فيه بعد أن تغلب على العقل والمنطق السليم؛ فكان جوابه عنيفاً لا يتناسق مع الموقف أبداً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[٢]، لئن لم تنتهِ يا إبراهيم عن زيغك وترجع عن غيك وتثب إلى رشدك لأرجمنك بالحجارة. وتقبل إبراهيم عليه السلام هٰذا العنف والتهديد قبول الابن البار الصابر على شطط الآباء، بل قابل هٰذا الموقف المتشنج بحلمه المعهود الذي أشاد به القرآن الكريم، فما كان جوابه لأبيه إلَّا أن ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[٣]، فقابل السيئة بالحسنة ويجوز أن يكون دعا له بالسَّلامة، ألا ترى أنَّه وعده بالاستغفار؟[٤] واستجابة لطلب أبيه الغاضب بالاعتزال قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[٥].

۞ المطلب الثاني: دعوته لقومه

دارت بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه جولات عدة من الحوار، وفي جميعها يتجلى حرصه على قومه إيماناً وبقاءً بينما تبين حرصهم على إلحاق الأذى المادي والمعنوي به في كل تلك الحوارات، فهو يريد لهم الحياة ويريدون له القتل، ولنأت الآن إلى ما أورده القرآن الكريم من حوارات مع قومه.

---

(١) انظر: الكشاف (م٢/ ٥١٠)؛ القرطبي (١١/ ٧٥)؛ البحر المحيط (٦/ ١٩٢ - ١٩٤).
(٢) سورة مريم: الآية (٤٦)، ومليا: زمنا طويلا. الطبري (١٦/ ٥١٧).
(٣) سورة مريم: الآية (٤٧).
(٤) انظر: تفسير القاسمي (م٧، ١١/ ١٣١).
(٥) سورة مريم: الآية (٤٨).

الحوار الأول:

ذكر القرآن الكريم حواراً لإبراهيم عليه السلام عن الإله الحق الذي يستحق العبودية تضمنته الآية الآتية، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1]، واختلف في هٰذا الحوار مع من جرى؟

فقيل إن إبراهيم عليه السلام أجراه مجاراة للخصم وإلزاماً له بالحجة وفي هٰذا يقول الشهرستاني: (وابتدأ بإبطال مذاهب عبدة الكواكب على صيغة الموافقة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كما آتيناه الحجة كذٰلك نريه المحجة، فساق الإلزام على أحاب الهياكل فَساق الموافقة في المبدأ، والمخالفة في النهاية ليكون الإلزام أبلغ والإقحام أقوى)[2]. وقد ذهب إلى هٰذا الرأي جمهور المفسرين[3].

ثم إن أصحاب هٰذا الرأي انقسموا في تقديراتهم له على آراء أبرزها:

١- إن الكلام جاء على سبيل الاستفهام الإنكاري والتقدير: أهٰذا ربي؟! أي لا يمكن أن أتخذ هٰذا رباً.

٢- أنه قاله على سبيل الاستهزاء بهم.

٣- أنه قال ذٰلك على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة للخصم ووصف الآلوسي هٰذا الرأي بأنَّه الحق الحقيق بالقول[4].

---

(١) سورة الأنعام: الآيات (٧٥ - ٧٩).

(٢) الملل والنحل (١/ ٢٣٢).

(٣) انظر: الكشاف (م٢/ ٣١)؛ القرطبي (٧/ ١٩)؛ الخازن (٢/ ١٢٥)؛ ابن كثير (٢/ ١٤٣)؛ تفسير الطبري (٥/ ٢٤٩).

(٤) انظر: الآلوسي (م٤/ ١٩٨)؛ الكشاف (م٢/ ٣١)؛ الخازن (٢/ ١٢٦)؛ ابن كثير (م٢).

لكن هناك من يرى أن هٰذا الحوار كان مع النفس عندما لم يكن إبراهيم عليه السلام نبياً ولم يبلغ سن الرشد بعد[١]. وفي هٰذا يقول سيد قطب رحمه الله: (إنها صورة لنفس إبراهيم وقد ساورها الشك، بل الإنكار الجازم، لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام وقد باتت قضية العقدية هي التي تشغل باله، وتزحم عالمه، صورة يزيدها التعبير شخوصاً بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾[٢]، كأنما الليل يحتويه وحده، وكأنما يعزله عن النَّاس حوله، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته، ومع همه الجديد الذي يشغل باله ويزحم خاطره)[٣]، ويمكن لأصحاب هٰذا الرأي أن يستدلوا على ما ذهبوا إليه بأدلة منها:

١- إن ظاهر السياق القرآني يدل على أن الحوار كان مع النفس، والقول بأنَّه مع قومه يحتم على قائليه تأويلات وإضافات إلى النص ليستقيم المعنى الذي يريدون، ومن المتفق عليه أن عدم التقدير أولى من التقدير.

٢- وردت على لسان إبراهيم عليه السلام كلمات غايته منها إلزام الخصم، منها قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، يريد أكبر الأصنام، فوصفها حديث نبوي شريف بأنها أخطاء وقعت من إبراهيم عليه السلام[٤]، ولكن الحديث لم يذكر قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ منها مع أنها بنفس المعنى، فدل على مغايرة هٰذا لتلك، بما يعني أن إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ كان باحثاً عن الإله الحق، لا ملزماً للخصم، ثم ما على إبراهيم عليه السلام من ذنب أن يقول هٰذا قبل أن تأتيه رسل السماء برسالة ربه؟ لقد بقي الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فترة طويلة يتحنث في غار حراء يبحث عن الهدى حتى فاجأه الوحي، وإن لنعد هٰذا من مفاخره صلى الله عليه وسلم، فماذا نحاول إيجاد التأولات لنخرج إبراهيم عليه السلام من المسار الذي ارتضاه الله تعالى للأنبياء وهو أن تسبق

---

(١) انظر: الطبري طبعة محققة (١١/ ٤٨٤)؛ انظر: الطبرسي (٧/ ١٨)؛ انظر: في ظلال القرآن، (٧/ ٢٩٠)؛ انظر: العصمة في الفكر الإسلامي، د. حسن غرباوي (٢٢٩) وما بعدها.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٦).

(٣) في ظلال القرآن (٧/ ٢٩٠).

(٤) الحديث سبق تخريجه.

نبوتهم فترة تأمل في الكون وتفكر في آياته، وإن من ذٰلك ما قام به إبراهيم عليه السلام حيث كان يبحث عن الإله الحق فعلم أن كل ما يدعون إليه هو باطل وهراء فحوار إبراهيم عليه السلام كان مع نفسه، وكان ذٰلك إلهاماً من الله تعالى قبل أن يوحى إليه، على نحو ما تحدث به المفكر في نفسه وهو يبحث عن الحقيقة[١]، ومع ما لهٰذا القول من معقولية ودقة توجب تقديره، إلَّا أن الرأي الأول - رأي الجمهور القائل بأن الحوار دار مع قومه، يعطي تنزيهاً لمقام النبوة الإبراهيميَّة أكبر وتقديساً لها أعظم، لذا كان اختياري له رأياً.

كيفية الحوار ووقته:

إن الترتيب التصاعدي في حجم الأرباب باد في السياق فهو يبدأ بالكواكب ثم يرتقي إلى ما هو أكبر، القمر، ثم إلى ما هو أكبر وهي الشمس، وقد يقال: أليس في هٰذا التصاعد التدريجي حسب الكبر شيء من الصياغة الفنية حيث أن الحوار جاء معارضاً لطبيعة الأشياء؟ فإبراهيم عليه السلام لابد أنَّه يعرف الشمس والقمر والنجوم قبل أن يقع في الحيرة في حواره مع قومه في البحث عن الإله الحق، فلماذا ابتدأ بالنجوم ثم القمر ثم الشمس؟

ويمكن أن يجاب على هٰذا الرأي بما صوره بعض المفسرين حيث قالوا: (رأى الكوكب في أول الليل هاوياً للغروب وبعد أفوله بقليل بزغ القمر، وكان ذٰلك في وسط الشهر وأنه سهر مع بعض قومه الليل كله حتى أفل القمر في آخره)[٢]، وكأن الاستدلال كله وقع في مجلس واحد[٣]، ويزيد صاحب المنار الأمر توضيحاً بالمثال حيث يقول: (وقد يتصور وقوع ذٰلك في بعض الليالي القليلة من السنة كالليلة الخامسة عشرة من شهر رجب من سنتنا هٰذه (سنة ١٣٣٦هـ)؛ فإن الشمس تغرب فيها عن أفق مصر الساعة ٦ والدقيقة ٢٨ ويطلع

---

(١) انظر: التحوير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية، تونس (٧/ ٣٢٤).

(٢) انظر: البحر المحيط، لمحمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ)؛ ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م (٤/ ١٦٨)؛ وأيضاً: المنار (٧/ ٥٦٠).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٧/ ٣٢٢).

القمر بعد غروبها بعشرين دقيقة، وفي هٰذه المدة يحتمل أن يرى بعض السيارات أو نحوها من النجوم المشرقة بالممتازة كالشعرى هاوياً للغروب، ويغرب بعدها بربع ساعة، ويغرب القمر في تلك الليلة بعد انتهاء الساعة الرابعة بدقيقتين من صبيحتها وتشرق الشمس بعد غروبه بأربع عشرة دقيقة)، ويستدرك قائلًا: (ولكن يعكر على هٰذا أه لا يظهر فيه جن الليل وهو إظلامه)[1].

ويمكن الإجابة عنه بأجوبة أخرى منها:

١- لما كانت عبادة الأصنام هي المشتهرة في قومه، أراد أن يجاريهم لا اعتقاداً منه بها فيما اشتهر عندهم، فابتدأ بها لكنَّه حين شاهد القمر، حتى ولو بعد حين، ناقش فكرة عبادته للكواكب وأنها إذا كانت مؤثرة فإن القمر أثر تأثراً فهو أكبر حجماً وأكثر تلألؤاً فهو أحق بالعبادة وسرعان ما رأى الشمس فقرر أن فيها ما في الكواكب والقمر وزيادة، فلمَّا لا تعبد هي إذن؟ لكن أقولها أبطل استحقاقها للعبادة فغادرها يبحث معهم عن الإله الحق.

٢- أن التدرج في منازل العباد لا في حجم المعبود وهٰذا يكون إذا ما ثبت أن عبادة الشمس تكون لأقوام معينين لهم مميزات خاصة، ودونهم في المميزات عبدة القمر، أمَّا سوقة النَّاس وعامتهم فيعبدون الكواكب إذن؛ فيكون قد أضرب عن أن يكون مع سوقة النَّاس في العبادة، فانتقل إلى المنزلة الأخرى، ولم يستقر عندها بل انتقل إلى قمة المنازل، فتبين له أن كل هؤلاء في كل منازلهم ذوي عقول خاوية لأرشد فيها فأعرض عنها يبحث عن الرشد في ملكوت السَّمٰوات والأرض.

الحوار الثاني:

ثم واصل إبراهيم عليه السلام دعوته لقومه محاوراً لهم في إثبات الإله الحق، وفي هٰذه المرة دخل معهم بحوار هم بدأوه وبعد أن أعلن على رؤوس الأشهاد

(١) تفسير المنار (٧/ ٥٦٠).

من هو الإله الحق ورفض أنواع الشرك بقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] جاءه قومه يجادلونه في موقفه هٰذا محذرينه من نتائج رفضه لعبادة الأصنام وما يمكن أن تفعله هٰذه الأصنام به إن هو استمر على مقاطعتها[2].

لكن وقف معهم يحاورهم بإيمان ثابت وعقل راجح، واتزان لا تهزه التهديدات، وقد أورد القرآن الكريم ما دار بينه وبين قومه بعد أن أورد توجه إبراهيم إلى فاطر السَّمٰوات والأرض، ورفضه عبادة الآفلين فقال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]، وحاجه قومه، كأنهم قالوا له: يا إبراهيم كيف تركت الآلهة وهي وسيلة الوصول إلى الله فهم شفعاء عنده؟ إنك بهٰذا تعرض نفسك لغضبها عليك وإمكانية انتقامها منك وختموا قولهم بأنهم سائرون على ما أوجدوا عليه آباءهم[4]، فأجابهم: عن أي شيء تعذلون؟ ألأني آمنت بالله وحده؟ عجيب هٰذا! أمَّا تخويفكم من غضب الآلهة وانتقامها فلا أشارككم الرأي فيه، فلا قدرة لهم على ذٰلك بل القادر الوحيد هو الله تعالى، فهو إن شاء عذب، وإن شاء رحم. ثم انتقل إلى موقف الحجاج الهجومي قائلًا لهم: أنتم تقرون بالله لكنكم تشركون معه أصناماً، أمَّا أنا فأقر بالله وحده ولا أقر بالأصنام وعليه فأنا لا أخاف ما تشركون لأني لا أقر بحقهم في العبادة ولا قدرتهم على فعل شيء، وبما أنكم تقرون بالله تعالى، فينبغي إذن أن تخافوه حيث آمنتم به لكنكم انحرفتم عن

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٧٩).

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (ت٥٩٧هـ)، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م (٣/ ٧٦).

(٣) سورة الأنعام: الآيات (٨٠ - ٨١).

(٤) انظر: تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ط٣، القاهرة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م (م٣/ ١٧٥).

سبيله، إذن فأنا لا أعترف بالأصنام فلا أخافها، وهٰذا أمر سليم، وأنتم تعترفون بالله ولا تخافونه، وهٰذا هو الأمر غير السليم وهو القلق إذن، فأي الفريقين أحق بالأمن؟ من آمن بالله وحده ولم يخف غيره، أم من آمن بالله ثم أشرك به شركاء من غير سلطان منه تعالى ولا رضا بما يفعلون؟[١]

وما يسجل هنا ما يأتي:

أولًا: إن قوم إبراهيم هم الذين ابتدأوه.

ثانياً: إنه كان هادئاً لم يثر فيهم العواطف ولم يزعجهم.

ثالثاً: كان عقلانياً يعتمد على قواعد مسلمة لدى الطرفين.

رابعاً: كان أسلوب الدَّعوة خفيفاً خفياً.

ثم نقول إن القرآن الكريم عقب على هٰذا الحوار بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

الحوار الثالث:

بعد أن رفض آزر دعوة ابنه إبراهيم أشد الرفض، وبعد أن رأى من قومه موقفاً مغايراً، كانت الموازنة عند إبراهيم عليه السلام أن رفض أبيه يقابله صمت القوم، فلعله لو جمع الطرفين وحاورهم، ينبري منهم رجل رشيد يقنعهم بصواب دعوة إبراهيم، فيتبعوه، ورهافة حس الأنبياء وعظمة نفوسهم تمحي من قاموس عواطفهم مصطلحات الحق والضغينة والكراهية وكل معاني السوء؛ فهم لا يحسون بها كما هي عند الآخرين، لذٰلك فهم يبحثون عن وسائل إيمان قومهم وإن كانت نسبتها أقل من واحد إلى السبعين فيبحثون عن العذر السبعين، بل أكثر من هٰذا يودون أن يستغفروا لأشد النَّاس لهم عداوة، فيما بعد السبعين لو أوصل

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (م٢/ ٣٢)؛ الرازي (م١٣/ ٦٠)؛ تفسير القرطبي (٧/ ٢١)؛ وانظر: مناظرات القرآن الكريم ومحاوراته، مقال للمرحوم منير القاضي، مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٠هـ/ ١٩٩٦م (م٨/ ١٢).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٨٣).

هٰذا الاستغفار إلى المغفرة وهٰذا ما حدا بإبراهيم عليه السلام أن يبتدئ هو هٰذه المرة الحوار مع أبيه وقومه، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۞ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۞ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1]. ويقوم هٰذا الحوار على ما يأتي:

أولًا: الأسئلة الإلزامية. **ما تعبدون؟**

الجواب: أصناماً.

ما صفة هٰذا المعبود: أيسمع، أيبصر، أينفع، أيضر؟

والجواب عن كل هٰذا بالنفي.

إذن فما سر هٰذه العبادة وسببها؟

الجواب: التقليد المطلق للآباء وإيقاف مهمة العقل أنها ليست عن قناعة مادية أو عقلية، وإنما هي تقليد وحسب عندها أعلن إبراهيم عليه السلام عداوته بهٰذه الآلهة ليؤكد موقفه السابق من رفضه لها وعدم خوفه منها، فهو هنا يصعد الموقف بإعلان العداوة لها أيضاً.

ثانياً: بعد هٰذا الحوار الذي كشف عجزهم عن المقارعة بالحجة العقلية عن آلهتهم[2]، أوضح إبراهيم أمرين:

أحدهما: إعلان العداوة للأصنام. وإبراهيم عليه السلام لا يقصد من وراء ذٰلك إثارة غضب قومه وتغيرهم بل يهدف القضاء على المخاوف التي تجتال بعضهم في أن هٰذه الأصنام تؤذي من يعاديها، بمعنى أن من يعتقد فيها القدرة على الأذى

(١) سورة الشعراء: الآيات (٦٩ - ٨٢).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، طبعة دار العصور، مصر، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م (٤/ ١٦٧).

سيحاور نفسه قائلًا: إن إبراهيم أعلن عداوتها، لكنها لم تستطع أذاه. إذن فما اعتقده فيها غير صحيح، بل الصحيح ما وصفها إبراهيم به من أنها عاجزة[١]، ويترتب على هٰذا أيضاً، أن ما قاله إبراهيم من أن الخالق الحقيقي الذي يرزق ويميت ويحيي ويمرض ويشفي هو الله وحده صحيح أيضاً فلمَّا لا أتبعه؟[٢]

والأمر الآخر: تبيان المعبود الحقيقي وبعض صفات رب العالمين الخالق الهادي، ونراه عليه السلام يركز على الصفات التي يبحث عنها الإنسان الأكل والشرب والصحة: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٣].

ثالثاً: لم يصرح إبراهيم بدعوة قومه إلى ترك الشرك دائماً وإنما اكتفى ببيان بطلان عبادة الأصنام وإثبات أحقية الخالق العظيم بالعبادة، ليترك لهم وقتاً يحاورون فيه النفس علها تهتدي. وقد ذكرت سورة الزخرف بعض هٰذا الحوار حيث قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[٤]، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[٥].

يوضح هٰذا الموقف أن قوم إبراهيم قد انحازوا إلى جانب العنف الذي ابتدأه أبوه وزادوا في تأجيجه حتى وصل إلى طلب قتله بأشنع طريقة للقتل وهي الإحراق وهٰذا العنف ينم عن الموقف المنهزم أمام الدَّعوة العقلانية التي

(١) انظر: الرازي (٢٤/ ١٤٢ - ١٤٣).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود، طبعة دار العصور، مصر، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨ (٤/ ١٦٧).
(٣) سورة الشعراء: الآيات (٧٩ - ٨٠).
(٤) سورة العنكبوت: الآيات (١٦ - ١٨).
(٥) سورة العنكبوت: الآيات (٢٤ - ٢٥).

أخذهم بها إبراهيم من كل جانب، فلا مفر: إما الإيمان وإما محق الداعي إليه، ولسوء حظهم اختاروا الثاني.

وملخص الأحداث في هٰذا الموقف كالآتي:

١- لأول مرة يجهر سيدنا إبراهيم بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك وعبادة الأوثان.

٢- إعلان بطلان عبادة الأوثان وكذب ربوبيتها وعجزها.

٣- الإعلان عن البعث والنشور وأن هناك يوماً يرجعون فيه إلى الله.

٤- رفضوا جميع ما دعاهم إليه إبراهيم عليه السلام.

٥- أعلن إبراهيم عليه السلام المبدأ الذي سار عليه الأنبياء بأمر الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[١].

٦- طالب القوم بإراقة دمه، أو إحراقه.

٧- لم يقف إبراهيم عن التبليغ حتى بعد هٰذه المطالبة حيث أوضح المصير الذي ينتظرهم إن هم لم يؤمنوا: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[٢].

ونؤكد هنا أن إبراهيم عليه السلام حين قال هٰذا وهو في ظاهره رد فعل لمطالبتهم بإحراقه ليس إلَّا من باب الحرص الشديد على إيمان قومه فهو هنا يحذرهم النَّار الأخروية التي لا تقاس بها نار الدنيا، لعلهم يرتدعون[٣]، أمَّا هو عليه السلام فلا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه وكذٰلك كان نبينا محمد ﷺ حينما رأى قومه قد نسوا نسياناً تاماً دين التوحيد دين جدهم إبراهيم، فما أكثر الوشائج والصلات بين إبراهيم ومحمد عليهما السَّلام. ومن

(١) سور العنكبوت: الآية (٨).
(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٥).
(٣) انظر: تفسير أبي السعود (٤/ ٢٥٧).

أراد دليلًا فليقرأ ما ورد عن رسول الله يوم الطائف إذ عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادات قومهم، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله، فردوا عليه رداً منكراً.. ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلي رسول الله ﷺ لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شُجَّ في رأسه عدة شجاج، ثم وصل رسول الله إلى بستان وقد أنهكه التعب وعمد إلى ظل شجرة عنب فلمَّا اطمأن، رفع رأسه يدعو: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي»[(١)].

وقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، قالت: قلت: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، أي الطائف، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلَّا بقرن الثعالب فرفعت رأس فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فقال: إن الله عزَّ وجلَّ قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: قد بعثني ربك، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً[(٢)].

۞ المطلب الثالث: التهديد والوعيد

بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام قومه برفق وحجة دامغة ولم يجد ذٰلك نفعاً، أراد أن يعنفهم إذ رآهم لا يأبهون لدعوته وكأنهم يظنونه عابثاً (فأخبرهم أنَّه سينتقل من المحجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله ومحاماة على دينه)[(٣)]. يقول تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۞ إِذْ

(١) السيرة النبويَّة لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وجماعة، طبعة المكتبة العلمية، بيروت (٢/ ٤١٩)؛ وانظر: فقه السيرة، محمد الغزالي، طبعة عالم المعرفة، (١٣٠).

(٢) البخاري بشرح الفتح (٦/ ٣١٢)؛ وصحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٥٥).

(٣) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني اليماني الصنعاني (ت١٢٥٠هـ)، ط١، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٠هـ (٣/ ٣٩٩).

قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۞ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾[1]، لقد هزهم هنا هزاً عنيفاً فأعاد إليهم بعض الوعي، إذ يبدو أنهم إلى الآن لا يرونه جاداً في دعوته لذلك كان استفسارهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾، ولما لم يجد لديهم أي استعداد لقبول دعوته، وجه إليهم إنذاراً صارماً بالكيد لأصنامهم، لكنهم ومع كل هٰذا مضوا في غيهم سادرين ولم يجيبوه حتى عندما هدد بالكيد لأصنامهم ولعلهم كانوا يخلدوه إلى أن هٰذا القول يؤكد ما يرونه فيه أنَّه لاعب في دعوته لا جاد، فماذا عساه أن يفعل بأصنامهم ليقم بما شاء من أنواع الكيد فهي له بالمرصاد، وعن هٰذا الحوار جاء قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۞ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

۞ المطلب الرابع: استخدام القوة في تحطيم الأصنام

أورد القرآن الكريم نصين يذكر أحدهما بداية الفعل الإبراهيمي، ويذكر الثاني تفاصيل أكثر، فقد ورد في سورة الصافات قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۞ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۞ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾[3].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ

(١) سورة الأنبياء: الآيات (٥١ - ٥٧).
(٢) سورة الصافات: الآيات (٨٣ - ٨٧).
(٣) سورة الصافات: الآيات (٨٨ - ٩٤).

﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۞ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[1].

لا تنطلق دعوة الأنبياء ولا تكتمل رسالتهم إلَّا بعد القضاء على الشرك، فباستقراء القرى، الكريم يتبين لنا أن كل الأنبياء ابتدأوا بالتوحيد ووقفوا عنده إلى أن تحقق ثم بعدها واصلوا طريقهم في الإرشاد والتبليغ وهكذا كان الأمر مذ دعا نوح قومه إلى أن قام رسول الله ﷺ بدعوته، وهو ما كان لإبراهيم عليه السلام وقد ظهر لإبراهيم أن وجود الأصنام هو العقبة في طريق دعوته الحق فليقدم على إزاحتها، فبعد أن ألان القول بدعوته، وحاور قومه وأفحمهم وشدد في دعائهم وهدد بالكيد لأصنامهم، ولم يفلح في كل ذٰلك، لم يبق أمامه من سبيل للإقناع إلَّا تحطيم الأصنام بالفعل، ليقفوا على الدليل الملموس لعجزها، وأنها لا تستحق العبادة، وهٰذا ما حصل فعلًا، فبعد أن أنذرهم أنَّه سيقوم بعمل ما ضد الأصنام، وبعد أن ذهبوا إلى ساحات الاحتفالات إذ كان لهم عيد في كل سنة يجتمعون فيه فقالوا لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا[2]، واعتذر إبراهيم عن مشاركتهم في هٰذه الاحتفالات، فقال إني سقيم، فتولوا عنه مدبرين، فذهب مسرعاً إلى المعبد الذي حشدوا فيه أصنامهم، وما أن وصل المعبد وشاهد الأصنام وحولها القرابين التي قدمها القوم، حتى وجه إليهم سؤالًا تهكمياً: ألا تأكلون؟ ولما لم يجيبوه سألهم: ما لكم لا تنطقون؟ فلم يجيبوه، وأنى لهم القدرة على الجواب، هنا أسرع إليهم ضربا بيد مقتدرة حيث استطاع أن يهشم كل الأصنام الصغيرة فتناثرت قطعاً صغيرة إلَّا أنَّه لم يتعرض لأكبر الأصنام حجماً، لغاية في نفسه إذ علق برقبة هٰذا الكبير الفأس التي حطم بها

(١) سورة الأنبياء: الآيات (٥٧ - ٧٠).

(٢) انظر: تفسير فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٠٠)؛ الكشاف (م٣/ ٣٤٥ - ٣٢٦).

صغار الأصنام. ولعل أبرز الأسباب التي دعته إلى عدم تحطيمه ما يأتي:

١- ليتهموه بأنَّه هو الذي فعل ذٰلك بآلهتهم.

٢- وعند إقرارهم بعجزه عن ذٰلك ستقوم عليهم الحجة.

٣- لإثبات كذب ما ادعوه من أن الأصنام قادرة على إلحاق الأذى بمن يعاديها، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ولا تعلم بخير ولا شر، ولا تخبر عن الذي ينويها من الأمر[1]، فإبراهيم حطم الأصنام الصغيرة، ولم تستطع أن تؤذيه، فإذا فرضنا أنها غُلبت قبل أن تغلب فما بال هٰذا الكبير الذي لم يحطم لم يثأر لمماثليه؟ أراض هو بفعل إبراهيم أم عاجز عن الانتقام؟ ثم لم لا يرد عن نفسه التهمة الموجهة إليه بتحطيم الأصنام؟ كل هٰذا يبرز صدق إبراهيم وصحة دعواه، وما أن انتهى الاحتفال حتى جاءوا إلى أصنامهم ليخضعوا لها ويقدسوها فإذا هي صرعى محطمة، وهنا تساءلوا عمن لديه القدرة والجرأة ليقوم بهٰذا العمل، فذكر لهم البعض أن رجلًا دائماً يذكر آلهتهم بسوء يسمى إبراهيم، فطلبوا أول الأمر إحضاره لمحاكمته علناً، ولعلهم يشهدون عليه بأنَّه هو الذي كان يسب الآلهة ويشتمها وهٰذه غاية من غايات إبراهيم أن يجتمع النَّاس كلهم ليسمعوا منه منطق العقل في فساد معتقدهم فأحضر ووجهت إليه التهمة فقال: (بل فعله كبيرهم هٰذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فأسقط بيد القوم ووقعوا في اللوم والحيرة.

اللوم: لِمَ لم يتركوا حرساً على الآلهة؟ **والحيرة**: كيف يجيبون إبراهيم فيما قال؟ وفي إجابته هدم لكل دعواهم الباطلة لكن الإرباك الشديد والحيرة القاتلة جعلتهم يجيبون بما لا يشتهون (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)، وهنا جاءت فرصة إبراهيم عليه السلام ليعلن على رؤوس الأشهاد دعوته، إذ: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا

(١) انظر: فتح القدير (٣/ ٤٠٠).

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١]، ولما لم يكن لديهم من وسيلة للدفاع المنطقي لجأوا إلى ما نادوا به أكثر من مرة وهو طلب إعدامه باستدعاء الملك واستعمال جاهه[٢]: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[٣].

ولكن، لماذا الإحراق من أنواع الإعدام؟

ما يمكن أن نقوله الآن، هو ليبلغوا في التشفي مداه، ولعل الأيام تكشف أن من قوانين ذٰلك العصر أن من طرق إعدامهم الإحراق.

(١) سورة الأنبياء: الآية (٦٧).
(٢) انظر: القرطبي (م٦، ١١/ ٢٠٠)؛ انظر: ابن كثير (٣/ ١٧٩).
(٣) سورة الأنبياء: الآية (٦٨).

المبحث الثالث
مناقشته للملك

قال عدد من علماء التاريخ أن الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه هو ملك بابل أول ملك ملك الدنيا وأول من تجبر وتكبر في الأرض وادعى الألوهية لنفسه، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، قاله مجاهد[١].

بعد أن وصل إبراهيم عليه السلام إلى قمة ما يمكنه من إقامة الأدلة على بطلان عبادة الأصنام عندما جعلها جذاذاً فأثبت لقومه عدم استحقاقها للعبادة لعجزها عن دفع الضر عن نفسها فهي عن دفعه عن غيرها أعجز، هنا ظهر له نوع آخر من التحدي والعناد وهو وإن لم يكن مفاجئاً لسيدنا إبراهيم عليه السلام لكنَّه يحتاج إلى سلاح آخر للإقناع، وكانت كل أسلحة إبراهيم عليه السلام المنطق والعقل السليم للإنسان السوي، وأعني به الجدل الذي حاول النمرود بن كنعان - ملك بابل - أن يرد به إبراهيم عن ربه، فبعد أن تغلب إبراهيم على كل خصومه بكل جولات الحوار حتى جولات تحطيم الأصنام، أراد هٰذا الطاغية أن يقول: إنك إن استطعت أن تتغلب على الأصنام وهي حجارة لا تنطق فها أنا ذا أنكر دعوتك وإلهك، وأنا لست صنماً أصماً ولا عاجزاً لا يستطيع الحراك، فهلم إلى محاورتي لأريك أني لن أعجز عن مقارعتك كما عجزت الأصنام، وفي هٰذه المحاورة قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

---

(١) انظر: الطبري (٣/ ٢٣)؛ البداية والنهاية (١/ ١٣٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٨).

ابتدأ الحوار كما يفهم من النص القرآني، بسؤال موجه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام أورد بعض المفسرين[١] أنَّه النمرود، قال لإبراهيم: (من ربك الذي تدعو إليه؟)، فقال إبراهيم عليه السلام: (ربي الذي يحيي ويميت)، أي يخلق الحياة والموت في الأجساد، فقال النمرود: (أنا أحيي وأميت)، وعنى بذلك أنَّه القادر على إصدار أمر بالعفو عن شخص أمر بقتله، فهذا إحياء له وأنه أمر بقتل شخص فيكون قد أماته فأدرك إبراهيم عليه السلام هذه المغالطة الرهيبة ولا سيما أن النمرود قد أحضر رجلين أمر بقتل أحدهما والعفو عن الآخر كما تقول بعض الروايات، فأراد إبراهيم أن ينتقل من هذا الموقف بسرعة قبل أن يتسبب بقتل رجل بريء يحقق للملك نصراً وهمياً أحمقا، فحول الحوار حول حقيقة أخرى من حقائق هذا الكون الدالة على خالقه، وهي لا تمكن الطاغية من أذى للآخرين فيها: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، هنا لم يجد الملك جواباً، فبهت الذي كفر، وحاول بعض المفسرين إجراء قواعد الجدل التي ابتكروها على عصر النمرود الذي سبقهم بقرون طويلة فقالوا: لو أن النمرود عكس السؤال على إبراهيم فقال له: ليأت بها ربك من المغرب فماذا عسى أن يفعل إبراهيم؟ ومع أن هذا لم يحدث إلَّا أنَّه لو حدث لما عجز رب إبراهيم عن الجواب المناسب[٢].

بقي أن أذكر أن المفسرين اختلفوا في وقت حدوث هذا الحوار وقد أوردوا روايات عن بعض السَّلف لا تعتمد نصاً يقول أن هذا حدث بعد خروج

---

(١) انظر: القرطبي (م٢، ٣/ ١٨٥)؛ انظر: الخازن (١٠/ ٢٣٠)؛ الآلوسي (م٢، ٣/ ١٦)؛ تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمٰن بن بكر السيوطي، عالم الكتب، بيروت (٥).

(٢) انظر: الآلوسي (م٢، ٣/ ١٨)، وفيه إضافة كأنَّه قيل للنمرود: أنت أحييت ولم تحي الميت، وعن الصادق رضي الله عنه أن إبراهيم قال له: أحيي من قتلته إن كنت صادقاً. وفي المنار: أن النمرود فهم مراد إبراهيم أن هذا النظام في سر الشمس لابد له من فاعل حكيم إذ لا يكون مثله بالمصادفة وأن ربي الذي أعبده هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قضت حكمته بأن تكون الشمس على ما نرى ومن فهم هذا لا يمكن أن يطلب من الحكيم أن يرجع عن حكمته ويبطل سننه. (٣/ ٤٧).

إبراهيم عليه السلام من النَّار بسلام، ومنهم من يقول أنَّه بعد تحطيم الأصنام وقبل إلقائه في النَّار، عندما كان في السجن ينتظر إكمال الاستعدادات لإيقاد النَّار ومن ثم إلقائه فيها[١].

والذي يرجح القول بأنَّه قبل إلقائه في النَّار ونجاته، أنَّه يتماشى مع المنطق السليم ومجريات الأحداث، ذٰلك أن الملك وبعد أن وصلت إليه كل أخبار إبراهيم ومطالبة النَّاس بإحراقه، أراد أن يتثبت من هٰذا الرجل الذي استطاع أن يتغلب بالحجة والبرهان على كل من وقف بوجهه مناقشاً ولم يكتف بهٰذا بل قام بتحطيم الأصنام، ولكي لا يكون قد ألقاه في النَّار إلَّا بعد أن تثبت بنفسه من أن أفكار هٰذا الرجل مغايرة لأفكاره وأفكار شعبه، وأيضاً لعله ينتصر عليه في الخصام ليبرهن لشعبه أن ما عجزتم عنه كلكم تمكنت منه وحدي.

لكن بعد عجز كما عجزوا (أمر بإبراهيم فألقي في النَّار وهكذا كان عادة الجبابرة فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة)[٢].

(١) انظر: القرطبي (٣/ ١٨٥ - ١٨٦)؛ انظر: الآلوسي (م٢، ٣/ ١٥ - ١٦).
(٢) القرطبي (٣/ ١٨٥)؛ الآلوسي (م٢، ٣/ ١٥).

المبحث الرابع
طلبه لليقين

أورد القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام طلب من ربه كيف يحيي الموتى، وبما أن القرآن الكريم لم يحدد المكان والزمان اللذين وقع بهما هٰذا الطلب، رأيت من المناسب أن أضعه مع هٰذه الحوارات التي أجراها إبراهيم عليه السلام وأنا أعرف أن هٰذا الحوار يتميز عنها ولا يشابهها، لكني رأيت أنسب مكان له في هٰذه الرسالة أن يكون بعد هٰذه الحوارات لأنَّه حوار أيضاً. فأقول وبالله التوفيق:

النص القرآني يبدد كثيراً من الأسئلة القلقة حول ما كان عليه إبراهيم عليه السلام لحظة توجيه الطلب منه إلى ربه وأخطرها هل كان إبراهيم يشك في قدرة الله تعالى إحياء الموتى؟

وقبل أن نذكر ما قاله المفسرون في هٰذا الأمر لنمضِ مع النص المجرد عن كل التفسيرات ثم لنذكر بعد ذٰلك قول المفسرين، يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]، إذن ابتدأ إبراهيم يخاطب رباً آمن به وبقدرته المطلقة وبتضرع واستسلام، وهو لا يقف عند إمكان الإحياء فهٰذا أمر مفروغ منه في تفكير إبراهيم لكنَّه يريد أن يمزج بين حالي الإيمان والمشاهدة (علم اليقين وعين اليقين).. ولا يمكن لأحد أن ينكر أن حال المشاهدة أعلى درجة من حال الاعتقاد القلبي ولا يقال هٰذا سائغ للإنسان العادي فكيف ساغ للأنبياء، إذ الجواب أن الأنبياء مهما علت منزلتهم فإنهم بشر لا يعلمون الغيب إلَّا مما علمهم الله. وحينما يُعلّمون الغيب بمسألة تزداد الراحة النفسية لهم بما

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

لا يوفره الإدراك القلبي، وإبراهيم طلب رؤية كيفية إحياء الموتى وهٰذا أدب رفيع إذ لم يطلب إمكانية الإحياء، والتي قد يوهم طلبها شكوكاً لدى الطالب، ولكن لما كان السؤال عن الكيفية يتضمن السؤال عن الإمكانية أراد القرآن الكريم أن لا نقف عند هٰذا بل وأن لا نفكر في أن إبراهيم عليه السلام كان شاكاً ولو للحظة واحدة فوجه السؤال هو العالم بالخفايا إلى إبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ﴾، أي ألم تعلم أني قادر على إحياء الموتى كيف أشاء حتى تسألني الرؤيا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت النَّاس إيماناً وأقواهم يقيناً ليجيب بما أجاب فيكون ذٰلك لطفاً للسامعين (قال بلى)، علمت وآمنت ولكن سألت ليطمئن قلبي بمضامين العيان إلى الإيمان والأعيان[1]، والقرآن الكريم عظيم في كل شأنه فقد حسم بهٰذا السؤال كل بلبلة تتلجلج في صدور المسلمين تؤول بهم أن لا يعطوا إبراهيم مكانته العظيمة في دوحة الإيمان، وقد كان هٰذا التساؤل رحمة عظيمة من الله لعباده، ومع هٰذا قد يبقى التساؤل قائماً أن إبراهيم سأل عن الكيفية، والقرآن تساءل معه عن الإمكانية[2]، ونؤكد ما قلناه أنَّه لما كان السؤال عن الكيفية يفهم منه مجازاً السؤال عن الإمكانية، أراد القرآن الكريم أن يجيب إبراهيم على التساؤلين معاً: الإمكانية والكيفية، فقال (بلى) ولكن ليطمئن قلبي بالمشاهدة المحسوسة وبعد أن أزال القرآن الكريم كل غموض وقطع الباب أمام كل شكوك بقوله: أرني، كيف، أو لم تؤمن، بلى، ليطمئن قلبي، أعطى لنبيه سؤله فقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾[3]، وهنا انشطر المفسرون الأوائل إلى شطرين الغالبية العظمى منهم قالوا: إن إبراهيم قد أمسك بالطيور الأربعة وقطعها إرباً إرباً وجعل على كل جبل قسماً من هٰذه القطع الممزوجة للطيور الأربعة، ثم دعاها فتجمعت بإرادة الله تعالى كل جزء مع الأجزاء الأخرى ليعود كل طائر كما كان قبل التقطيع. وقال أبو مسلم: لم يقم إبراهيم بذبح ولا تقطيع وإنما فهم من هٰذا الكلام الأمر الإلٰهي في الإحياء

(١) انظر: تفسير أبي السعود (١/ ٢٩٨)؛ الآلوسي (٢/ ٢٦)؛ تفسير الجلالين (٥٧).
(٢) القرطبي (٣/ ٢٩٩).
(٣) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

وضرب لذٰلك مثلًا: (إذا سألك سائل كيف يصنع الحبر مثلًا فتقول: خذ كذا وافعل به كذا وكذا يكن حبراً، تريد هٰذه كيفيته ولا تعني تكليفه صنع الحبر بالفعل)[١]. وعليه فالمعنى خذ أربعة طيور واجعلها تأتي لك بحيث تجيب دعوتك ثم اجعل كل واحدة على جبل فتراها إذا دعوتها تسرع إليك لا يمنعها تفرق أمكنتها، كذٰلك إحياء الأموات فمتى أراده الله جمع الخلق بقوله كونوا أحياء، وقد رجح الآلوسي ما ذهب إليه الأولون ووصف ما ذهب إليه أبو مسلم خلاف الإجماع وضرب من الهذيان[٢]، في حين دافع عنه الشيخ محمد رشيد رضا وناقش فيه الرازي وغيره ثم قال: (وجملة القول أن تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذي يدل عليه النظم)[٣]، ولا شك عندي أن سياق الآية يرجح قول الجمهور على أن ما ذهب إليه أبو مسلم فيه من الطرافة وخصوبة التفكير ما يجعلنا لا نتفق مع العلامة الآلوسي فيما قاله عنه، وبعد هٰذا نتساءل، لماذا كانت الاستجابة لطلبه على هٰذه الصورة؟ وهل أن هٰذه الصورة أوضحت الكيفية حتى أصبحت معروفة عند إبراهيم؟ أجاب بعض المفسرين عن شيء مما يحمله السؤال الأول وأجاب محمد رشيد رضا عن شيء مما يحمله السؤال الثاني.

أما عن السؤال الأول فقالوا: إن إبراهيم عليه السلام لما كان متضرعاً إلى الله حسن الأدب معه أجابه إلى ما سأل في الحال على أيسر ما يكون من الوجوه[٤]، وإذا كان هٰذا ليس جواباً مباشراً على تساؤلنا فأرى أن الجواب عن الوجهين كالآتي، ليؤكد المعنى الذي أراده إبراهيم عليه السلام وهو الكيفية لا الإمكانية إذ لو كان السؤال عن إمكانية الأحياء لكان الجواب مثلًا أن قف على قبر دارس وقل لصاحبه قم (بإذن الله) فستراه قائماً لكن لما كان السؤال عن الكيفية، فهٰذا التفصيل شيء منها أمَّا التساؤل الثاني، فالجواب عنه أن ما أورده القرآن الكريم لا يعطي الإجابة الدقيقة عن الكيفية، إذ لا يمكن للإنسان أن يصل إليها بقول

(١) تفسير الرازي (٧/ ٤١ - ٤٢)؛ الآلوسي (٢/ ٣٠)؛ المنار (٣/ ٥٥).
(٢) الآلوسي (٢/ ٣٠).
(٣) تفسير المنار (٣/ ٥٧ - ٥٨).
(٤) الآلوسي (٢/ ٣١).

الشيخ محمد رشيد رضا (فلا يمكن أن يصل البشر إلى كيفية له - الإحياء - إلَّا إذا أمكن الوقوف على كنه إرادة الله تعالى وكيفية تعلقها بالأشياء، وظاهر القرآن وهو ما عليه المسلمون، أن هٰذا غير ممكن فصفات الله منزهة عن الكيفية والعجز عن الإدراك فيها هو الإدراك)[١].

بقي أن نستذكر أن القرآن الكريم أحياناً ما يريد إبعاد الصورة عن العلوق في الذهب كما ورد في قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ...﴾[٢].

(١) تفسير المنار (٣/ ٥٨).

(٢) سورة النور: الآية (٣٥).

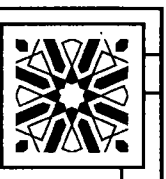

الفصل الثانـي

الدعوة بعد الهجرة

تمهيد

لم ترد في القرآن الكريم آيات توضح لنا موقف إبراهيم عليه السلام مع الأقوام التي التقى بها أو سكن معها بعد الهجرة من حيث الدَّعوة إلى الله تعالى، بل نجد التركيز على جوانب إكرام الله تعالى لإبراهيم بما وهبه من ذرية صالحة، وما كان يدور بينه وبين ذريته، وما قام به من أعمال عبادية معهم، وهنا يكون السؤال ملحاً: ماذا فعل إبراهيم مع هٰذه الأقوام؟ وماذا فعلت هي معه؟ هل دعاهم إلى الله أم لم يدعهم؟ وإذا كان قد دعاهم فهل استجابوا أم رفضوا؟ وإذا دعاهم فرفضوا فما كان مصيرهم؟ وإذا لم يدعهم فكيف يسوغ ذٰلك؟

وإذا كنا عاجزين عن الإجابة القاطعة على هٰذه التساؤلات وأيها الذي وقع، فإن الظنون دائرة بين احتمالين:

الأول: إن إبراهيم انتهت مهمته الدعوية منذ اليوم الأول لهجرته، فما عاد داعياً بل مبلغاً ومعلماً لمن آمن به وهاجر معه من بعد ذٰلك لذريته التي وهبها الله تعالى له.

ويمكن الاستدلال على هٰذا بما يأتي:

١- لم يورد القرآن الكريم أي جهد دعوي لإبراهيم عليه السلام بعد الهجرة، بل اقتصر على ذكر ما وهبه له من ولد وما قام به من أدعية ونصائح لأبنائه وما قام به من بناء البيت ودعوة النَّاس إلى حجه، وكل هٰذه لتفاصيل عبادية مبني على التسليم العقائدي بالله الواحد لا شريك له.

٢- ذكر القرآن الكريم ما قام به لوط عليه السلام من دعوة قومه وما لاقاه منهم وما

كان مصيرهم، لكنَّه سكت عن فعل إبراهيم في هٰذا الوقت الذي تزامن مع دعوة لوط، اللَّهم إلَّا ما دار بينه وبين الملائكة الذين جاءوا لإهلاك قوم لوط، وهو موقف ليس في دعوة ولا رسالة.

٣- ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصَّلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى النَّاس عامة**»[(١)]. يؤخذ منه أن إبراهيم عليه السلام كان قد بعث في قومه، وهم أهل بابل في العراق، أمَّا أهل فلسطين حيث هاجر فالحديث النبوي يدل على أن إبراهيم من المحتمل أن لا يكون قد بعث إليهم.

٤- ورد في الصحيح أن إبراهيم عليه السلام دخل مصر وأن فيها جباراً يغتصب النَّاس أعز ما يملكون، ثم لا نجد إبراهيم دعاه إلى الله وإلى ترك هٰذا السوء بل أن هٰذا الجبار أقدم على محاولة قاسية في حق زوج إبراهيم عليه السلام ولم يفعل إبراهيم إلَّا الإلتجاء إلى الله تعالى لينقذ زوجه من هٰذا الجبار[(٢)]؛ فلو كانت دعوته مستمرة لما وقف هٰذا الموقف بل لابد من إرشاد هٰذا الملك إلى سواء السبيل مهما كانت النتيجة.

الاحتمال الثاني: أن إبراهيم عليه السلام وجد أناساً في مهاجره أكثر تقبلا لدعواه من أهله وقومه، فلم يتعبوه في دعوته، بل ربما يكون وجدهم مؤمنين فلا حاجة له إلى الدَّعوة والجهاد في سبيلها.

ويمكن الاستئناس بما أوردته كتب التاريخ من أن (ملكي صادق) حاكم فلسطين، حين دخلها إبراهيم كان رجلًا صالحاً، وكان يحترم إبراهيم عليه السلام ويعظمه حتى أنه عليه السلام نال منه خيرا كثيراً[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري بشرح الفتح (١/ ٤٣٦).
(٢) صحيح البخاري بشرح الفتح (٦/ ٣٨٨)؛ انظر: تاريخ الطبري (١/ ٢٤٥).
(٣) الغرب واليهود في التاريخ (٢٥٣).

وإذ أعترف أن أدلة الاحتمال الأول هي الأقوى أرى أن الاحتمال الثاني هو الذي يتماشى مع روح الخير والمحبة التي يمتاز بها إبراهيم عليه السلام؛ فهل يمكن لإبراهيم أن يحتكر خير النبوة له ولبنيه، ويدع النَّاس لا يهتدون إلى الصراط السوي؟ اللَّهم إلَّا أن يكون قد بلغ كما بلغ سيدنا محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]، وبعد هٰذا نقول: إن الدَّعوة الإبراهيميَّة بعد الهجرة اقتصرت على الإرشاد والتنظيم لمن آمن به، ونورد الآن المباحث التي تجلي صورة ذٰلك.

(١) سورة الإسراء: الآية (١٥).

المبحث الأول
بناء العقيدة في قلوب أبنائه

إذا كان إبراهيم عليه السلام حريصاً على إدخال الإيمان في قلوب الناس، فإنه أشد حرصاً على أن يكون أبناؤه متمسكين ليس بالإيمان بالله فحسب، بل حتى في جزيئات الأوامر الإلٰهية، ونجد هٰذا الحرص عند إبراهيم في وقت مبكر قبل أن يرزقه الله الولد، ولنسمع قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]؛ فلمَّا قام إبراهيم بالتكاليف خير قيام وأداها أحسن أداء جعله الله إماماً للنَّاس في دينهم ودنياهم، فقال إبراهيم: وجاعل بعض ذريتي كذٰلك؟[2]

فهو هنا يريد لذريته أن يكونوا أئمة الناس، وهٰذا ما لا يكون إلَّا بعد الالتزام بكل أوامر الله تعالى، ثم نجده عليه السلام بعد أن رزقه الله الذرية دائماً يؤكد على أبنائه التمسك بالإيمان بالله وحده، ويذكرهم باستمرار بأداء ما فرضه الله عليهم[3].

ومما ورد في القرآن الكريم من ذٰلك الإيمان بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ط٦، دار الجيل، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م (١/ ٦٩).

(٣) انظر: الرازي (٤/ ٣٨).

إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1]؛ فإبراهيم عليه السلام بعد أن طولب بالإسلام أسرع إلى الانقياد وكان مكتملًا بالملة الحنيفية وأرادها لأولاده فطلب منهم أن يثبتوا على الإسلام ولا يفارقوه[2]؛ فقال مؤكداً: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي فحافظوا على الإسلام لله ولا تفارقوه برهة واحدة فربما تأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم، وفي هٰذا النهي إيماء إلى أن من كان منحرفاً عن الجادة لا ييأس، بل عليه أن يبادر بالرجوع إلى الله ويعتصم بحبل الدين خيفة أن يموت وهو على غير هدى، فالمرء مهدد في كل آن بالموت[3]، وهٰذا الحرص الذي يشدد عليه إبراهيم عليه السلام بدا واضحاً عندما أجابوا سؤال يعقوب: ما تعبدون من بعدي؟ ومراده من هٰذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بثباتهم على الإسلام والتوحيد وابتعادهم عن عبادة الأصنام[4]، فأجاب الأبناء: نعبد إلهك، ليشعروه أنهم سيعبدون الله تعالى وحده، إذ هو تعالى إله يعقوب، ثم أكدوا ذٰلك بقولهم: وإله آبائك، ولكي يبددوا كل شك قد ينفذ إلى قلبه وضحوا المراد من آبائه بقولهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهم أنبياء لا يعبدون إلَّا الله ثم زادوا ذٰلك توضيحاً بقولهم: إلهاً واحداً، فلا تخاف علينا أن نشرك بل نحن له مسلمون.

تدلل كل هٰذه التأكيدات من الأبناء على الحرص البالغ من يعقوب عليه السلام في أن يستمر أبناء إبراهيم على الإيمان بالله تعالى التزاماً منه بوصية إبراهيم عليه السلام ويبدوا أن الأبناء قد فهموا ذٰلك من أبيهم لكثرة ما أكد وأعاد وكرر عليهم، لذٰلك أرادوا وقد حضرته الوفاة، أن يموت قرير العين، أن أبناءه يلتزمون دينه ويبعدون إلهه، وأن لا يخاف عليهم الشرك، وقبل هٰذا نجد أحد أبناء يعقوب وهو يوسف عليه السلام يؤكد الإيمان المطلق بالله الواحد حين كان في

---

(١) سورة البقرة: الآيات (١٣٠ - ١٣٣).
(٢) انظر: تفسير الواضح (١/ ٧٠ - ٧١).
(٣) انظر: تفسير المراغي (١/ ٢٢٠ - ٢٢١).
(٤) انظر: تفسير المراغي (١/ ٢٢١).

السجن ودخل معه السجن فتيان وطلبا منه تأويل رؤياهما، حيث انتهز هٰذه الفرصة ليدعوهما إلى الله تعالى حيث: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۞ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1]. فبعد تأكيده المطلق بالله تعالى يعود ليؤكد نبذه للشرك بكل تفاصيله، يدلل على هٰذا قوله تعالى: ﴿مِن شَىْءٍۚ﴾ أي رفض أي نوع من أنواع الشرك، وفي الزخرف يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۞ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، والكلمة هي كلمة التوحيد (لا إله إلَّا الله) فلا يزال في عقبة من يعبد الله إلى يوم القيامة، وتبقى راية التوحيد في الأعقاب موصولة بالأحقاب[3].

ولعل خوف إبراهيم الشديد من أن يشرك أبناؤه له ما يبرره، ذٰلك أنَّه عندما دعا ربه أن يجعل من ذريته أئمة، أعلمه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]، بما يعني أن من ذريته من سيكون ظالماً، والشرك كما ورد في القرآن هو ظلم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[5].

(١) سورة يوسف: الآيات (٣٧ - ٣٨).
(٢) سورة الزخرف: الآيات (٢٦ - ٢٨).
(٣) انظر: المراغي (٩/ ٨٤).
(٤) سورة البقرة: الآية (١٢٤).
(٥) سورة لقمان: الاية (١٣).

المبحث الثاني
الجهد البدني المعماري

المسجد هو المثابة التي يرجع إليها المؤمنون، وفي ظله يلقون الأمن والسكينة لذلك يعد بناء البيت العتيق ركناً عظيماً وأساساً راسخاً في مسيرة الدَّعوة الإبراهيمية، فرفع إبراهيم عليه السلام لقواعد البيت هو رفع لقواعد الدين الحنيف، ولقد كان التشابه كبيراً بين بناء إبراهيم للبيت العتيق وبناء الرسول الأعظم ﷺ للمسجد النبوي فكل منهما كان قاعدة الدين ونبراس هداية المؤمنين. وسنقف هنا عند أمور هي:

١- بناء البيت.

٢- مهمة تطهير البيت.

٣- الأذان بالحج.

۞ المطلب الأول: بناء البيت

صدر الأمر الإلٰهي لإبراهيم عليه السلام ببناء البيت العتيق في مكة المكرمة، فحار إبراهيم أولًا، لكنَّه ما لبث أن جاءته الهداية الإلٰهية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾[1]، وبوأناه: أي أرشدناه إلى المكان الذي يبني فيه البيت.

وقد أوضحت الآثار المروية عن بعض السَّلف أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً، فأرسل الله السكينة، وهي ريح، حتى انتهت إلى مكة واستدارت حول بقعة من الأرض أُعلم إبراهيم أن

(١) سورة الحج: الآية (٢٦).

هٰذا مكان البيت، حيث كان معه ملك يدله[١]، وبعد أن علم موقع البناء جاء إلى ابنه إسماعيل فوجده يبري نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم (فلمَّا رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، من الإكرام، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذٰلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهٰذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)[٢]. وفي هٰذا جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٣].

وقد أورد بعض المفسرين روايات كثيرة حول بناء البيت وصفاته، وحول الحجر الأسود، ومن أين جاء، وكيف جاء، وإن كان البيت مبنياً قبل إبراهيم، وقال بعضهم: بني في زمن نوح، وقال آخرون: بل في عهد آدم عليه السلام، وفي كل ذٰلك يقول ابن كثير: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام»[٤].

---

(١) انظر: أخبار مكة، الأزرقي (١/ ٦٤)؛ وانظر: زاد المسير (١/ ١٤٤).

(٢) البخاري (٦/ ٣٩٧ - ٣٩٨).

(٣) سورة البقرة: الآيات (١٢٥ - ١٢٩).

(٤) أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي (ت٥٤٣هـ)، طبعة دار الفكر، بيروت (م٣/ ١٢٧٨)؛ وأيضاً: ابن كثير، البداية والنهاية (١/ ١٥٣)؛ وينظر أيضاً: تفسير الثعالبي، جواهر الحسان في تفسير القرآن، لعبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت (١/ ١٠٧)؛ وأيضاً: تفسير القاسمي (م٢، ٤/ ١٥٠).

ووصف محمد رشيد رضا رحمه الله هٰذه الروايات بأنها: «خرافات إسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه»[١].

كما أن المفسرين أوردوا كثيراً من التفصيلات حول بناء البيت والصفة التي بني عليها في زمن إبراهيم، فمما رواه الأزرقي عن ابن عباس قوله: (أما والله ما بنياه بقصة - جص - ولا مدر، ولا كان معهما من الأعوان والأموال ما يسقفانه، ولكنهما أعلماه فطافا به)[٢].

ومما ذكره عن أبعاده أنَّه جعل طوله في السماء تسعة أذرع وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً من الركن الأسود إلى الركن الشامي، وما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعاً ومن الركن الغربي إلى الركن اليماني واحداً وثلاثين ذراعاً، ومن الركن اليماني إلى الركن الأسود عشرين ذراعاً[٣].

وإذا أردنا أن نقرب إلى الدقة في تحديد مساحة البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام فلنرجع إلى الحديث الصحيح الذي أورده البخاري وغيره عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تر أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم، فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: لولا حدثان قومك بالكفر» فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت من رسول الله ﷺ ما أرى أن رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين الذين يليان الحجر إلَّا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم[٤]، وبمعرفة قياسات البيت عند قريش وما أوضحه الرسول عليه السلام يتبين البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام.

مقام إبراهيم:

من ملحقات البيت وبنائه، مقام إبراهيم، وقد طلب القرآن الكريم من

---

(١) تفسير المنار (١/ ٤٦٧).
(٢) أخبار مكة (١/ ٦٢).
(٣) أخبار مكة (١/ ٦٤).
(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٠٧).

المسلمين الصَّلاة فيه: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ...﴾[٢]. فما هو مقام إبراهيم؟

يرى بعضهم أن أصله الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام في أثناء بناء البيت كي يتمكن من بناء أعالي البيت، أو هو الحجر الذي وقف عليه عندما زار بيت إسماعيل فلم يجده ووجد زوجه الثاني فوقف على هٰذا الحجر وغسلت له رأسه[٣]، وقد كان ملتصقاً بالبيت ثم أخر في خلافة عمر إلى مكانه الحالي ليتمكن الطائفون من الطواف ويصلي المصلون عنده دون تشويش[٤]، وقد نقل بعض المفسرين آراءً لبعض السَّلف توضح المراد من مقام إبراهيم وأن المراد به هو الحرم كله[٥].

۞ المطلب الثاني: تطهير البيت

لم يخلد إبراهيم عليه السلام إلى الراحة يوماً، ولم يتوقف عن نشر تعاليم ربه، فإذا كانت دعوته وقومه أوصلته إلى إلقائه في النَّار، فهو مع متبعيه ليس أقل نصيباً، ابتلاءٌ إثر ابتلاء، وتبليغ إثر تبليغ، وتكليف إثر تكليف، فما أن انتهى من بناء البيت حتى جاءه الأمر الإلهي: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٦]، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٧]؛ فالمهمة هنا هي تطهير البيت من كل ما يسيء إليه، ويقلل من قدسيته وتعظيمه.

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٢٥).
(٢) سورة آل عمران: الآيات (٩٦ - ٩٧).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٠).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١٧١).
(٥) المصدر نفسه (١/ ١٧٢).
(٦) سور البقرة: الآية (١٢٥).
(٧) سورة الحج: الآية (٢٦).

وقد أورد المفسرون روايات عن التطهير، منها ما يقول أن المراد به التطهير من الأذى والنجس، ومنها ما يقول من الأوثان، والجمع بين كل هٰذه الروايات ممكن وصحيح؛ فهو مأمور بتطهيره من الأوثان والأذى والنجس فهو تطهير عام من الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء وغير ذٰلك[١]، وإذا كان تطهيره من الرجس والأوساخ سهل لا كلفة فيه، فإن الحفاظ عليه ألا يدخله الشرك فيه من الصعوبة شيء كبير، وقد فسر بعضهم الطائفين بالغرباء والقائمين بالمقيمين[٢].

۞ المطلب الثالث: الأذان بالحج

آن لهٰذا الفارس أن يترجل، ولهٰذا المسافر أن يلقي عصاه ليستقر به النوى، وللخليل أن يلتقي بخليله، لقد أوشك أن يبلغ الكتاب أجله؛ فهٰذه هي المهمة الأخيرة لإبراهيم عليه السلام، فبعد أن أتم بناء البيت، وبعد أن نفذ أمر ربه بتطهيره وتهيئته للطائفين والعاكفين والركع السجود، جاء الأمر الإلٰهي بدعوة النَّاس لحج البيت الحرام، فقد جاءه جبريل عليه السلام وأراه المناسك كلها وأبلغه أمر ربه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٣]؛ فقام على المقام، أو على جبل أبي قبيس فنادى: (يا أيها النَّاس أجيبوا أمر ربكم، يا أيها النَّاس كتب عليكم الحج)[٤]، ثم توجه إبراهيم وإسماعيل فوقفا المواقف كلها.

ويروى أن سارة وإسحاق عليهما السَّلام جاءا من بيت المقدس فحجا البيت الحرام[٥]، ثم رجع إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام إلى الشام وهناك التحق بالرفيق الأعلى[٦].

---

(١) تفسير الثعالبي (٣/ ٧٦).

(٢) انظر: تفسير زاد المسير (١/ ١٤٢)؛ تفسير ابن كثير (١/ ١٧٢). والقائمين: إما القائمون في الصَّلاة أو المقيمون بمكة.

(٣) سورة الحج: الآية (٢٧).

(٤) القرطبي (١٢/ ٢٦)

(٥) فتح الباري (٦/ ٤٠٦).

(٦) المصدر نفسه (٦/ ٤٠٦).

المبحث الثالث
عبادات إبراهيم عليه السلام

لم يكتف إبراهيم عليه السلام بدعوة قومه إلى الإيمان بالله وحده، وإنما دعاهم إلى عبادته سبحانه وتعالى وإذا أوردنا ما جاء به إبراهيم عليه السلام من أمور عقائدية إنا نردف ذلك به بما جاء به من أمور تخص التعبد وقد ذكر القرآن الكريم عن إبراهيم أنَّه دعا قومه إلى عبادة الله وتقواه مجملًا في بعض الآيات وقد أبان عن بعض هذه العبادات في آيات أخرى، وما ورد مجملًا قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، وما ورد مجملًا قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2]، وقد ذكر بعض المفسرين أن أصول الدين واحدة عند جميع الأنبياء وهي: (التوحيد، والصَّلاة، والصيام، والحج، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال.. والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكفر والقتل والزنا والأذية للخلق كيفما تصرفت والاعتداء على الحيوان كيفما دار واقتحام الدناءات وما يعود بحزم المروءات؛ فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملةً متحدةً لم تختلف على السنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم)[3].

أمَّا ما نص عليه القرآن من العبادات في دين إبراهيم عليه السلام فالكلام عنها

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (١٦).
(٢) سورة الشورى: الآية (١٣).
(٣) القرطبي (١٦/ ٩).

فيما يأتي:

الدعاء: أكثر القرآن الكريم من إيراد الأدعية المتنوعة لإبراهيم عليه السلام حتى أنها طغت على كل عبادة قام بها، ولما كان الأمر هكذا ولما صح عن رسول الله أنَّه قال: «**الدعاء هو العبادة**»[١]، جعلت الكلام عن الدعاء هو مفتتح هٰذا المبحث.

الدعاء لغة:

بمعنى الاستعانة، وقد يكون الدعاء عبادة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[٢][٣]. الدعاء لون من ألوان العبادة وطريق من طرائق التقوى التي تصل العبد بخالقه، وللأنبياء فنون يعبرون فيها عن مليح الدعاء وصدق الاستغراق، وحلاوة المناجاة هو سفر حافل مليء بالعذب والجميل مما جاءت به قرائح الأنبياء في هٰذا الباب وقد سجل القرآن الكريم جانباً من دعاء الأنبياء الذي يمتزج بأريج الوحي وعبق النبوة، فبعضهم طلب التوبة منه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ...﴾[٤]، وبعضهم ناجى ربه في رفع ضره: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٥]، وبعضهم ناجى ربه في رفع غمه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٦]، وبعضهم ناجى ربه في طلب الذرية: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[٨]،

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٢٤٩)؛ وأبو داود (١/ ٧٧)؛ وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨)؛ وأخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد (٤٥٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٩٤).

(٣) اللسان، مادة: دعا (٢٤/ ٢٥٧).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٧).

(٥) سورة الأنبياء: الآية (٨٣).

(٦) سورة الأنبياء: الآية (٨٧).

(٧) سورة الأنبياء: الآية (٨٩).

(٨) سورة آل عمران: الآية (٣٨).

وبعضهم ناجى ربه في طلب الملك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾(١).

ومن هٰذا القبيل كان دعاء الخليل وفي مختلف الميادين الحياتية، خصه الله تعالى بحسن العبادة وأدب الطلب وحسن الثناء فكان دعاؤه رحمة لقومه ولمن تبعه من المؤمنين ولذويه من المهتدين والظالمين، والخليل من الأنبياء الذين خصهم الله فما استعجل بالدعاء على قومه لسوء أخلاقهم أو لإعراضهم وطغيانهم بل كان رحيماً بهم إلى حد ربما تعرض من ورائه لعتاب من ربه وهو ما سجله القرآن عندما حاول دفع أو تأخير الأذى عن قوم لوط: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾(٢)، بل أنَّه سن سنة لمن بعده من الأنبياء بأن لا يستعجلوا على أقوامهم بالدعاء فحينما طلب الأمن والتوحيد من ربه طلب المغفرة لمن عصى من قومه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣)، وقد غالب الغضب على كثير من الأنبياء فدعوا على أقوامهم، فدعا نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾(٤)، ودعاء صالح: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾(٥)، ودعاء موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾(٦)، وامتنع عيسى عن الدعاء حين قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٧)؛ وهكذا كان النبي ﷺ رحيماً بقومه رؤوفاً بأمته ولعله أمر بدأه الخليل وانتهى عند محمد ﷺ.

ومن أجل بيان الملامح الجمالية والدعوية في دعاء الخليل لابد من استقراء النصوص القرآنية التي نقلت لنا جانباً من دعاء هٰذا النبي الكريم ومن ثم

(١) سورة ص: الآيات (٣٤ - ٣٥).
(٢) سورة هود: الآية (٧٦).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).
(٤) سورة نوح: الآية (٢٦).
(٥) سورة المؤمنون: الآية (٢٦).
(٦) سورة يونس: الآية (٨٨).
(٧) سورة المائدة: الآية (١١٨).

تصنيفها وبيان بما تضمنته من معان يتعلق بعضها بالعقيدة وبعضها بالسلوك وبعضها في الدنيا وآخر في الآخرة، وحسب السياق القرآني في عرضه لتلك الأدعية.

أولًا: في سورة البقرة

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

ثانياً: في سورة إبراهيم

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۞ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۞ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۞ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[2].

ثالثاً: في سورة الشعراء

قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۞ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۞ وَلَا

(١) سورة البقرة: الآيات (١٢٦ - ١٢٩).
(٢) سورة إبراهيم: الآيات (٣٥ - ٤١).

﴿تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١].

ومن خلال هٰذا العرض القرآني لنصوص الدعاء عند الخليل إبراهيم يمكن لنا الإشارة إلى بعض اللمحات التي تميز دعاءه والتي يمكن إجمالها بما يأتي:

١- **أدعية تتعلق بالعقيدة:** لا شك أن العقيدة هي أهم القواعد التي يبنى عليها سلوك الإنسان، ولا غرو من أن يطلب العبد من مولاه معرفة من يناجيه وما يتعلق به وأن ينجيه من آفات الزيغ والضلال، وقد احتل الدعاء بشأن العقيدة حيزاً كبيراً من الدعاء ولعل ذٰلك يبدو واضحاً في المسائل الآتية:

- **دعاؤه في طلب الإسلام..** وذٰلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٢]، أي اجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك غيرك، واجعل من ذريتنا أيضاً جماعة مسلمةً لأمرك خاضعين لطاعتك[٣].

- **طلب النجاة من الشرك..** وذٰلك في قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ فقد ذكر أنَّه افتتن بالأصنام كثير من النَّاس وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم[٤]، وكذٰلك الأمر بالنسبة للتوحيد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، والقلب السليم هو القلب الموحد العامر بعقيدة التوحيد الخالي من أدغال الشرك كما قاله المفسرون[٥].

- **معرفته لقدرات الخالق..** من أهم الأمور التي تضفي على الدعاء ثوب الوصل والاستجابة معرفة العبد لأسماء وصفات خالقه من أجل مناجاته

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (٨٣ - ٨٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٨).

(٣) مختصر تفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن مع تحقيقات علمية هامة، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني ود. صالح أحمد رضا: ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م (١/ ٦٦).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).

(٥) انظر: تفسير الرازي (٢٤/ ١٥١)؛ والقرطبي (م٧، ١٣/ ٧٨)؛ ابن كثير (٣/ ٣٢٨).

بتلك الأسماء وهٰذا ما حدا بالخليل لتخير ألفاظ المناجاة بصفاته، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

- **الإخلاص في الدعاء**.. ومن الأدعية التي تتعلق بالعقيدة الطلب بلسان صادق وقلب مخلص وذٰلك من خلال معرفة العبد أنَّه مكشوف السر والعلانية أمام مولاه وهٰذا ما حدا بالخليل أن يعلن هٰذا الأمر في دعائه مع مولاه، حيث قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول ابن جرير: (أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هٰذا البلد وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك فأنت تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء[1]).

٢- **أدعية تتعلق بالعبادة**: والعبادة من الأركان المهمة في حياة الإنسان خصوصاً منهم الأنبياء والرسل فهي سلم الوصول إلى الله تعالى وهي الغاية الأساسية للخلائق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، لذٰلك كان لدعاء العبادة حظ كبير على لسان الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصَّلاة والسَّلام، وذٰلك واضح في المواضع القرآنية الآتية.

- **إقامة الصَّلاة**.. حيث قال تعالى على لسان نبيه الخليل: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، قال ابن جرير، وهو متعلق بقوله (المحرم)، أي: إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصَّلاة عنده[3].

- **مناسك الحج**.. والحج من الأركان العظيمة التي أسس قواعدها هٰذا

(١) تفسير الطبري (م٨، ١٣/ ٢٣٥)؛ ابن كثير (٢/ ٥٢٢).
(٢) سورة الذّاريات: الآية (٥٦).
(٣) تفسير الطبري (م٨، ١٣/ ٢٣٥)؛ ابن كثير (٢/ ٥٢٢).

النبي الكريم وذلك منذ قيامه بالبناء هو وولده إسماعيل، قال تعالى على لسانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، يقول الطبري: (وعلمنا يا ربنا مناسك حجك كيف نطوف ونسعى وكيف نقف بعرفات ونرمي الجمار، وعن علي رضي الله عنه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: فعلت أي رب فأرنا مناسكنا، فبعث الله جبريل فحج به)[2].

٣- **أدعية تتعلق بالسلوك**: وأعني بتلك الأدعية ما يتعلق منها بحياة النبي مع النَّاس من حيث المودة والتعامل والصلة، ويمكن استقصاء تلك المسائل عن طريق المواقف الآتية:

- **إنسانيته في الدعاء.. الإنسان** بطبعه أناني يطغى حبه لنفسه على الآخرين غالباً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[4]، فلا يستطيع أن يتخلى عن تلك الأنانية إلَّا إذا بلغ مرحلة من الإيمان عالية وهي المرحلة التي يستجاب فيها الدعاء جزاءً لتلك النفس المؤمنة، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله: «**دعاء المؤمن لأخيه المؤمن بظهر الغيب مستجاب**»[5]، ولأن للأنبياء مكانة عند الله فكان لدعائهم أبلغ الآثار في نجاة أولئك القوم أو هلاك تلك الأمة.. ولسيدنا إبراهيم لمسات إنسانية رائعة في دعائه للمؤمنين من أمته عموماً: للصالحين بالقبول وللفاسقين بالتوبة والمغفرة، وكذلك دعاؤه لنفسه ولأسرته ولذريته وذلك يدل على مثاليته العالية وإنسانيته الرائعة، وقد سجل القرآن تلك المواقف لسيدنا إبراهيم

---

(١) سورة البقرة: الآيات (١٢٧ - ١٢٨).
(٢) انظر: الطبري: طبعة محققة (٣/ ٧٦ - ٧٩)؛ مختصر الطبري (١/ ٦٦).
(٣) سورة العلق: الآية (٦).
(٤) سورة العاديات: الآيات (٦ - ٨).
(٥) صحيح مسلم (١٧/ ٤٩).

على سبيل الرضا والمباركة، ومن بين تلك المواقف:

- **موقفه مع العصاة..** ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١]؛ فلم يدع على العصاة بل ترك أمرهم لله في مغفرته ورحمته.

- **موقفه بالدعاء لأسرته وأتباعه من المؤمنين..** ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٣].

فطلب في دعائه الأول التوبة له ولأسرته، وفي الدعاء الثاني المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم القيامة، ويلح في دعائه لوالده بالرغم من كفره وذلك عرفاناً منه بجميل التربية والنبي ﷺ يقول: «**من صنع لكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافؤه فادعوا له حتى تظنوا أنكم كافأتموه**»[٤]. ولعل هٰذا مما حدا بالخليل أن يكرر طلب المغفرة لوالده في أكثر من موضع: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۞ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[٥]، ولعل هٰذا الدعاء الأخير خوف من الخليل أن يعاتبه مولاه فيما طلب من مغفرة لوالده، والله تعالى أعلم.

- **الدعاء لنفسه بالقبول والذرية الصالحة..** لا شك أن الإنسان حينما يدعو يطمع بالإجابة ولاشك أيضاً أن الإنسان إذا ما أراد أن يطلب لنفسه لا يطلب أكثر من الذرية الصالحة، لذلك جاء عن الخليل في دعائه قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٦]، وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾[٧]، وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).
(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٨).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (٤١).
(٤) مسند أحمد (٢/ ٦٨، ٩٦)؛ وأبو داود (٢/ ١٣١)؛ والنسائي (٥/ ٨٢).
(٥) سورة الشعراء: الآيات (٨٦ - ٨٧).
(٦) سورة الصافات: الآية (١٠٠).
(٧) سورة الشعراء: الآيات (٨٣ - ٨٤).

مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[١].

- **يجمع بين الدين والدنيا**.. يقول البعض: لا يجوز للإنسان أن يطلب من الله ما يجوز طلبه من العباد، ويرى البعض أن للعبد أن يسأل ربه كل شيء حتى قال بعضهم: كنت أسأل ربي ملح الطعام[٢]، ولا يعنينا هٰذا كثير قدر ما يعنينا أن نشير إلى أن الخليل عليه السلام كان يطلب في دعائه من ربه مقومات الحياة السعيدة والتي يمكن الإشارة إليها عبر النقاط الآتية:

- **طلب الأمن عند بناء البيت**.. وأن الأصل في بناء البيت عمرانه، والعمران لا يتم عن طريق البناء فقط فلابد من العمران الحقيقي وأعني به المؤمنين من النَّاس وحتى يتم ذٰلك الأمر لابد من أمور أساسية بل وجوهرية أهمها وأبرزها الأمن، وقد امتن المولى على العرب من قريش في الجاهلية بنعمة الأمن والاكتفاء الغذائي، فقال جلَّ وعلا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾[٣]، وقد جاء على لسان سيدنا إبراهيم ما يطلب فيه ذٰلك الأمر حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[٤]، وفي موضع آخر قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[٥]، وقد فصل سيدنا إبراهيم أسباب الأمن في إحدى مناظراته التي سجلها القرآن على لسانه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٦]، فبين الخليل عليه السلام أن التوحيد والنجاة من الشرك هي أول دعائم الأمن لمن يبحث عن الاستقرار.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٤٠).
(٢) الأحياء (١/ ٣٠٤).
(٣) سورة قريش: الآيات (٣ - ٤).
(٤) سورة البقرة: الآية (١٢٦).
(٥) سورة إبراهيم: الآية (٣٥).
(٦) سورة الأنعام: الآيات (٨١ - ٨٢).

❑ **طلب الرزق**.. والرزق من المقومات الأخرى للاستقرار الدنيوي، وقد طلب سيدنا إبراهيم حياة الرخاء لقومه ولبلد الله الحرام، فقال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[١]، وفي موضع آخر قال: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾[٢]، إذ أن فقدان الرزق وتعسر أسبابه مما يؤدي إلى القلق والاضطراب ولأنه عليه السلام طلب الأمن في دعائه والأمن لا يحقق إلَّا بتأمين الرزق.

❑ **طلب انسيابية النَّاس إلى ذٰلك البيت**.. لقد أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم بأوامر كبيرة وعظيمة منها بناء البيت، وقبله إلقاء أهله وطفله في ذٰلك المكان ونفذ الخليل الأوامر باستسلام تام ودون أي سؤال أو اعتراض فكان منه بعد أن نفذ هٰذين الأمرين أن يسأل ربه سؤالين:

الأول: أن يتحقق المقصد من البناء عن طريق الوفود الحاجة وأن يرحم أهله بإسكان من يخالطهم من الناس، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[٣]، فطلب أن يزورهم بعض النَّاس وتهوي الأفئدة إليهم.

الثاني: دعوة أولئك النَّاس إلى الله تعالى وعبادته عن طريق نبي يبعث منهم فجاء في دعائه: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٤]، فلم يشأ الخليل أن يترك أولئك النَّاس بدون رسالة من السماء تنور قلوبهم وأبصارهم لمعرفة الله.

من آثار هٰذا الدعاء ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾.

وبعد أن تجولنا في رحاب هٰذه الأدعية الإبراهيميَّة المباركة ووقفنا على محتوياتها وما تضمنته من معان آن لنا أن نتعرف على ما ترتب على تلك الأدعية

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٧).
(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٦).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (٣٧).
(٤) سورة البقرة: الآية (١٢٩).

من آثار وعلى المسميات كافة، فلقد سجل القرآن الكريم معظم تلك الآثار وبشكل مفصل ويمكن إجمالها بناء على ما مر من تقسيمات.

أولًا: في الأدعية التي تتعلق بالعقيدة، من حيث طلب الإسلام والنجاة من الشرك، يعرض لنا القرآن الكريم جانباً من تلك الآثار.

يؤكد القرآن على فطرة الخليل السليمة من خلال وصفه بالحنيفية السمحة فيقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١]، وفي موضع آخر: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

وأمَّا عن ذريته فقد نقل لنا القرآن استسلام تلك الذرية لأمر الله قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٣]، وأمَّا عن إخلاصه في الدعاء فقد امتدحه القرآن بالصفات التي تدل على ذٰلك والتي منها: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[٥].

ثانياً: أدعية العبادة.. فلم يذكر لنا القرآن الكريم إجابة هٰذا الأمر فقط عن طريق القرآن وإنما جعلها مسألة باقية الشواهد على استجابة هٰذا الدعاء، فالصَّلاة قائمة والناس يغدون في كل يوم إلى تلك الديار بين زائر معتمر وحاج، قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٦].

ثالثاً: أدعية تتعلق بالسلوك.. من ذٰلك إنسانيته في الدعاء وذٰلك في

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٦٧).
(٢) سورة الأنعام: الآية (١٦١).
(٣) سورة البقرة: الآية (١٣٣).
(٤) سورة النحل: الآية (١٢٠).
(٥) سورة النجم: الآية (٣٧).
(٦) سورة الحج: الآية (٢٧).

قوله عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١]؛ فقد أثار هٰذا الدعاء مشاعر النبي ﷺ تجاه أمته فقال: «اللهم من لأمتي»، فأرسل المولى أمينه جبريل يبشر النبي بقوله: (إن الله سيرضيك في أمتك ولا يسوؤك)[٢].

وأما عن دعائه لنفسه ولذريته بالحكم والصلاح والذرية، فيجيب القرآن على ذٰلك بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٣]، ويقول: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[٤].

أما عن طلب الأمن؛ فقد أجاب القرآن الكريم مفصلًا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[٦].

وعن انسيابية النَّاس إلى ذٰلك البيت (قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم: لو قال أفئدة النَّاس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، لكنَّه قال النَّاس فاختص به المسلمون)[٧].

وعن تيسير الرزق، يجيب القرآن الكريم على هٰذا الطلب بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾[٨]. يقول ابن كثير: وهٰذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته أنَّه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام[٩].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).
(٢) صحيح مسلم (٣/ ٧٨).
(٣) سورة النساء: الآية (٥٤).
(٤) سورة مريم: الآيات (٤٩ - ٥٠).
(٥) سورة العنكبوت: الآية (٦٧).
(٦) سورة آل عمران: الآيات (٩٦ - ٩٧).
(٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).
(٨) سورة القصص: الآية (٥٧).
(٩) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).

وأما عن طلب رسول منهم فقد أجاب المولى هٰذا الدعاء في شخص أعظم الأنبياء والمرسلين فشرف به تلك الديار ومن يسكنها حيث قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]؛ فكان المصطفى ﷺ هو دعوة والده إبراهيم عليه السلام، وفي ذٰلك يقول: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى**»[2].

الصَّلاة: قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[4].

الصَّلاة لغةً[5].. الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم.

أما في الاصطلاح[6].. فهي أقوال وأفعال مخصوصة مبتدئة بالتكبير ومختتمة بالتسليم والصَّلاة هي صلة العبد مع ربه.

وقد أكد القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام كان يصلي ويدعو أتباعه لأداء الصَّلاة أمَّا كيفية الصَّلاة التي كان يؤديها إبراهيم عليه السلام فليس لدينا التفاصيل الدقيقة عنها إلَّا أن بعض النصوص القرآنية أوردت بعض الشيء من ذٰلك، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[7]، فذكرت الآية ركنين معروفين لدينا وهما الركوع والسجود، وهٰذا

---

(١) سورة الجمعة: الآية (٢).

(٢) مسند أحمد (٥/ ٢٦٢)؛ الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٠)؛ مجمع الزوائد، للإمام الهيثمي، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٤/ ٦٢)؛ إلى ابن عساكر من تاريخ دمشق (٨/ ٢١١).

(٣) سورة إبراهيم: الآية (٤٠).

(٤) سورة إبراهيم: الآية (٣٧).

(٥) انظر: لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار الفكر، بيروت (١٤/ ٤٦٤).

(٦) فقه السنة، السيد سابق، ط٨، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م (١/ ٨١).

(٧) سورة البقرة: الآية (١٢٥).

وإن كان المراد منه (المصلين) فهو يدل دلالة لا شك فيها أن أجزاء من صلاة هؤلاء المصلين هي الركوع السجود، لكن لو سألنا هل هو الركوع والسجود المتعارف عليه في شريعتنا الإسلاميَّة؟ فلا يمكن لأحد أن يجزم بالإيجاب فيمكن أن يكونا هما أو ركوع أو سجود غيره على أن هناك تصوراً للسجود الإبراهيمي قد يفهم أنَّه مشابه للسجود في شريعتنا حيث يقول تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[1]، فكلمة خروا[2] تدل على الهوي إلى الأرض وهو المعمول به عندنا.

الزكاة: قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[3]، وردت هٰذه ضمن التعليمات التي جاءت بها صحف إبراهيم وموسى والزكاة لغة هي الزيادة[4]، واصطلاحاً[5] هي اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، كأن تدفع شاة واحدة من أربعين شاة إلى الفقراء والمساكين ممن يستحق الزكاة، أمَّا أنواع ومقادير الأموال التي تزكى في شريعة إبراهيم فلم تذكر تفاصيلها فنتوقف عند ما توقف عنده القرآن الكريم.

الحج: قال تعالى مخاطباً إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[6]، ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[7].

والحج لغة[8]: القصد، اصطلاحاً[9]: قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك

---

(١) سورة مريم: الآية (٥٨).
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٢٣٥).
(٣) سورة الأعلى: الآية (١٤).
(٤) انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٥٨).
(٥) فقه السُّنَّة (١/ ٢٨٧).
(٦) سورة الحج: الآية (٢٧).
(٧) سورة البقرة: الآية (١٢٨).
(٨) انظر: لسان العرب لابن منظور (٢/ ٢٢٦).
(٩) فقه السُّنَّة (١/ ٥٤٠).

معينة من السعي والطواف والوقوف بعرفة وغيره استجابة لأمر الله تعالى والحج في دين إبراهيم يكاد يكون متطابقاً مع الحد في شريعتنا. فمن المتعارف عليه أن العرب قبل بعثة النبي ﷺ قد حرفت بعض معالم الحج وشعائره التي توارثتها نم شريعة إبراهيم عليه السلام وأن الرسول ﷺ صحح ما وقعوا فيه من أخطاء على أن القرآن الكريم صرح بالطواف ركناً من أركان الحج، حيث قال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1]، هٰذه الأركان الكبرى التي جاء بها الإسلام قد أورد القرآن الكريم أنها كانت في شريعة إبراهيم، أمَّا الصوم فلم ينص القرآن على أن إبراهيم دعا قومه إليه لكنَّه هو فريضة ثابتة على كل الأمم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2]، وهٰذا يعني أنَّه كان مكتوباً على قوم إبراهيم.

الشكر: وردت بعض الآيات الكريمة التي تنص على الشكر ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، وقال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[5].

فوصفت الآية الأولى إبراهيم عليه السلام بأنَّه شاكر، وفي الآية الأخرى يدعو قومه لشكر الله تعالى، وفي الآية الثالثة يرجو الله إذا ما أنعم على قومه وبنيه أن يقابلوا هٰذا الإحسان منه تعالى شكراً منهم له. والشكر: هو اعتراف بفضل

---

(١) سورة الحج: الآية (٢٦).
(٢) سورة البقرة: الآية (١٨٣).
(٣) سورة النحل: الآيات (١٢٠ - ١٢١).
(٤) سورة العنكبوت: الآية (١٧).
(٥) سورة إبراهيم: الآية (٣٧).

المنعم المتفضل على وجه الخضوع[١] أن، وقد تفضل الله تعالى على خلقه بكل شيء من الإيجاد إلى الجزاء الأخروي وما بينهما من نعم لا تحصى، وقد أراد الله تعالى من عبده أن يشكره فقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٢]، فكفر النعمة من أقبح صفات الإنسان لذا فشكرها من أحسن خصال الخير فيه، وقد كان إبراهيم عليه السلام شاكراً لأنعم الله وأمر قومه بالشكر؛ فهو إذن نوع من أنواع العبادة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

التحية: إن ما ينشر المحبة والألفة بين النَّاس أنهم إذا ما التقوا حيّا بعضهم بعضاً، والمحبة بين النَّاس والألفة بينهم من مقاصد شرع الله في كل مكان وزمان، وقد أورد القرآن الكريم أن من شريعة إبراهيم التحية، ومما جاء في ذٰلك ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام عندما كان يحاور أباه ورفض الأب كل ما جاء به إبراهيم، فقال تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ﴾[٣].

ونجد التحية مألوفة عند إبراهيم عندما جاءه الملائكة يحملون الأمر الإلٰهي بتدمير قرى قوم لوط حيث قالوا لإبراهيم: ﴿سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ﴾[٤]، وإذا سلمنا بما قاله بعض المفسرين من أن إبراهيم عليه السلام حين قال للملائكة: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[٥]؛ لأنَّهم سلموا عليه فأنكر سلامهم في ذٰلك الزمان وفي تلك الأرض[٦]، علمنا أن التحية لم تكن معهودة في عادة النَّاس فجاء إبراهيم بها شرعاً وهنا نذكر ما قالوه من أن موسى عليه السلام حين سلم على الخضر أجابه وأنى بأرضي السَّلام[٧].

فصيغة التحية في شريعة إبراهيم هي السَّلام، وهي نفسها صيغة التحية في

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية في علم التصوف، أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، دار التربية، بغداد (١٣٧).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٥٢).

(٣) سورة مريم: الآية (٤٧).

(٤) سورة هود: الآية (٦٩).

(٥) سورة الذاريات: الآية (٢٥).

(٦) القرطبي (١٧/ ٣١).

(٧) صحيح البخاري بشرح الفتح (١/ ٢١٧ - ٢١٨)؛ ومسند أحمد (٥/ ١١٨ - ١٢٠).

الإسلام، ولا نريد أن نكتب عنها الكثير بل نكتفي بالقول إنها تحمل معنى الإخاء والطمأنينة والاستقرار، وكأن الذي يلقي التحية يقول لصاحبه اطمئن لي ولا تخف الغدر فأنت في مأمن وسلام.

الرجاء وعدم القنوط: المؤمن يرجو رحمة ربه ويحذر سخطه لكنَّه أبداً لا يقنط من رحمة الله وعونه، وهٰذا الأمر مما جاءت به شريعة إبراهيم من أمور عبادية واعتقادية، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۞ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[1].

ونلاحظ أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين ظهر من كلامه استبعاد وجود الولد بعد الكبر فقالت الملائكة لا تكن من القانطين، نلاحظ أنه عليه السلام ينتفض في صيغة المستغفر قائلًا: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وكأنَّه يقول: (لم أستنكر ذٰلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله)[2]، والقنوط هو اليأس وعدم الرجاء[3].

ومما جاء في رجاء إبراهيم قوله تعالى على لسانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[4]، وإذا كان الطمع المادي غير مرغوب به فإن الطمع برحمة الله ليس إلَّا تعلقاً من العبد بربه والتماساً منه لرحمة الله وتحقيقاً للعبودية في دعائه من ربه أن يحقق له العبودية.

العزلة: ليس دائماً يطالب الشارع متبعيه أن يواجهوا النَّاس كفاحاً بل نجده في حين ما يطلب من المتعبد العزلة أو الهجرة وذٰلك عند الخوف على العقيدة من أن تهتز أمام قوة الأعداء، وهكذا كانت العزلة الإبراهيمية، فبعد أن قاسى إبراهيم عليه السلام ما قاساه عند دعوة قومه حتى ألقوا به في أتون الجحيم عندها

(١) سورة الحجر: الآيات (٥٥ - ٥٦).
(٢) الكشاف (٢/ ٣٩٣).
(٣) انظر: تفسير الآلوسي (٦/ ٣٤٠).
(٤) سورة الشعراء: الآيات (٧٨ - ٨٢).

توجه إبراهيم إلى العزلة ينتظر التوجيه الإلٰهي حيث قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ۞ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[١]، والعزلة: المفارقة[٢]، ومفارقة الأهل والألف والأقارب فيه من العنت شيء كبير غير أنَّه إذا كان في ذات الله فإنه يعد نوعاً من الجهاد، لذٰلك كانت الهجرة من أعظم الأعمال التي يقوم بها المتعبد.

التوكل: التوكل على الله في كل شيء خصلة حميدة يجب على المؤمن بالله أن يتصف بها، والتوكل من الأوامر الإلٰهية التي طالب الله فيها عباده أن يلتزموه، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٣]، وقد استجاب إبراهيم للأمر الإلٰهي في ذٰلك فنجده يقارن بين شيئين: ترديد التوكل والدعوة إليه، والتزام ذٰلك وتنفيذه، ومما جاء في التوكل عند إبراهيم قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤]، ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٥]، وقال تعالى على لسانه عليه السلام أيضاً: ﴿ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾[٦].

وحقيقة التوكل كما يقول الغزالي: عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده[٧]، ويشترط في الوكيل أمور أربعة، هي:

١- منتهى الهداية.

٢- منتهى القوة.

٣- منتهى الفصاحة.

---

(١) سورة مريم: الآيات (٤٨ - ٥٠).
(٢) انظر: القرطبي (١١/ ٧٦).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (١٢).
(٤) سورة الممتحنة: الآية (٤).
(٥) سورة الشعراء: الآيات (٧٨ - ٨٠).
(٦) سورة العنكبوت: الآية (١٧).
(٧) الأحياء (٤/ ٢٥٩).

٤- منتهى الشفقة[١].

والتوكل على الله تعالى لا يعني طرح الأسباب وعدم الأخذ بها فإن هٰذا يوصلنا إلى الجبرية المقيتة وإنما التوكل على الله أن نقوم بالأسباب ونترك الفعل الحقيقي في هٰذه الأسباب إلى الله تعالى، لذٰلك فإن الرسول ﷺ حين رأى أحدهم يترك ناقته بلا عقال قائلًا: توكلت على الله، قال له: «**إعقلها وتوكل**»[٢]، أي باشر الأسباب واترك نتائج ذٰلك متوكلًا على الله.

الاستغفار: طلب المغفرة بعد رؤية قبح المعصية والإعراض عنها[٣]. والمغفرة هي العفو عن عقوبة الذنب. وقد أوضح القرآن الكريم أن الله تعالى طالب عباده أن يستغفروه بكثير من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾[٤]، وقد ورد الاستغفار على لسان إبراهيم حين قال لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٨].

وقد يخطر ببال أحد تساؤل يقول: الاستغفار يقع بعد وقوع الإنسان في الخطيئة، والأنبياء معصومون عن الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها، فلم يستغفر الأنبياء؟ والجواب من وجوه، الأول: أن الأنبياء هم عباد الله تعالى، وكلَّما تقربوا إليه بتنفيذ أوامره شعروا بالارتياح الكبير والاستغفار من أوامر الله

(١) نفس المصدر (٤/ ٢٥٩).
(٢) سنن الترمذي (٤/ ٦٦٨)؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء وفي الرسالة القشيرية (١٢٩).
(٣) انظر: التعريفات للجرجاني (١٨).
(٤) سورة الزمر: الآية (٥٣).
(٥) سورة مريم: الآية (٤٧).
(٦) سورة الممتحنة: الآية (٤).
(٧) سورة الشعراء: الآية (٨٦).
(٨) سورة إبراهيم: الآية (٤١).

تعالى وهم أول من ينفذ أمر الله تعالى. ثانياً: ما أوضحه الرسول الأعظم ﷺ حين ألح على نفسه بالعبادة فقالت له السيدة عائشة: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال عليه السلام: «**أفلا أكون عبدا شكوراً**»[١]. الثالث: قد يقع من الأنبياء ما يتخالفون أنَّه تقصير منهم في حق خالقهم فيبادرون إلى الاستغفار (وطلب سيدنا إبراهيم المغفرة من خطيئته ليس خطيئة بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن وإنما هو استغفار في نفسه من قصور في تفانيه في الله وأداء رسالته نظراً لمكانته العظيمة)[٢].

البكاء: أمر تستدعيه حالات كثيرة، وقد لا يكون مرغوباً فيه شرعاً في كثير من الحالات، إلَّا أن بعض الحالات قد أقر الشرع فيها البكاء وجعله جزءاً من التعبد المأجور عليه، وأهم ما صرح به أن البكاء من العبادة إذا حدث من خشية الله وسماع آياته، لذلك امتدح القرآن الكريم الأنبياء ومتبعيهم لبكائهم عند سماع آيات الله فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[٣].

النسك: لا نعني هنا بالنسك معناه العام وهو مطلق العبادة، وإنما نعني نوعاً من أنواع العبادة وهو التقرب إلى الله بتقديم القرابين والأضاحي[٤]. وإذا لمحنا هٰذا المعنى في شرعنا الحنيف فما يهمنا الآن هو أن هٰذا الأمر وهو تقديم القرابين لوجه الله تعالى كان أمراً مشروعاً عند إبراهيم عليه السلام، حيث أمره الله تعالى بأن يقدم ابنه إسماعيل ذبيحاً امتثالًا لأمر الله تعالى وفي هٰذا يقول القرآن الكريم: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾[٥]، وقد استعد إبراهيم عليه السلام

(١) صحيح البخاري بشرح الفتح (٨/ ٥٨٤)؛ ومسلم (١٧/ ١٦٢)؛ ومسند أحمد (٦/ ١١٥)؛ والمعجم الكبير (٢٢/ ١٠٩).
(٢) العقائد الإسلاميَّة (١٨٦).
(٣) سورة مريم: الآية (٥٨).
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٤٩٨).
(٥) سورة الصافات: الآية (١٠٢).

للتنفيذ، غير أن الله تعالى أمره باستبدال هٰذا النسك بأن فداه بكبش كبير يقدم قرباناً لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1].

ولعل من النسك في هٰذا الباب ما قدمه إبراهيم لضيوفه في القصة المعروفة حيث قام بذبح عجل وتقديمه مشوياً إليهم.

(١) سورة الصافات: الآية (١٠٧).

الخاتمة

من كل سبق من رحلتنا مع أبي الأنبياء والمرسلين عليه الصَّلاة والسَّلام، نخلص إلى ما يأتي من نتائج لا على سبيل الحصر إنما على سبيل المثال:

١- إن سيدنا إبراهيم عليه السلام نبي من أولي العزم، آتاه الله رشده في سن مبكرة، ثم أكرمه بالنبوة، ووصفه ربه بأنَّه صديق وفي كون الداعي معروفاً بالرشد والصدق أكبر العون على أداء مهمته الإصلاحية.

٢- تتمثل الصديقية عند إبراهيم عليه السلام في الصدق الذاتي، صدق القول وصواب العمل وسلامة القلب، وتتمثل أيضاً في سرعة التصديق بخبر الله تعالى حتى أنَّه ليعمد إلى التضحية بولده البكر الوحيد إسماعيل عليه السلام، بمجرد رؤيا يفهم منها إشارة فيسارع إلى التنفيذ، وفي هٰذا سر من أسرار نجاح المصلحين في دعوتهم، إذ يرى النَّاس فيهم مطابقة القول للعمل فتتميز دعوة الصدق عن دعاوى الأدعياء.

٣- يمثل سيدنا إبراهيم عليه السلام الصورة المثلى لمن يلقى بقياده تاماً إلى الله سبحانه وتعالى[1] في التنفيذ والسؤال واليقين، فهو ينفذ من غير تردد، ثم لا يسأل غير الله أحداً، ومعه اليقين الثابت بوعد الله أنَّه لا يترك أولياءه وأحبابه، بل إن ثقة إبراهيم بعلم الله الكامل المطلق تمنعه من سؤاله مصداقاً للحديث القدسي: (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما

(١) في رحاب الأنبياء والرسل، د. عبد الحليم محمود، كتاب اليوم، دار الأخبار، القاهرة (٧٧).

أعطي السائلين)[١]، نرى ذٰلك عندما أُلقي الخليل في النَّار يأتيه جبريل وهو في الهواء فيسأله: ألك حاجة يا إبراهيم؟ فيجيبه صاحب اليقين المتوكل على الواحد الأحد: أمَّا إليك فلا، فيطلب منه أن يسأل ربه فيقول: علمه بحالي يغني عن سؤالي. ويمكننا أن نقارن هٰذا الموقف بموقف الرسول محمد ﷺ ومن معه من الصحابة الكرام في حادثة الخندق (٥هـ) إذ يقول القرآن عنها: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٢]، فكان موقف أهل اليقين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[٣].

٤- إن الصبر زاد الطريق، وهو من أخلاق المصلحين، وكذٰلك كان إبراهيم عليه السلام؛ فلم يستسلم إلى اليأس حين رأى موقف أبيه من دعوته مع أنَّه أقرب النَّاس إليه، وما من شك في أن أصحاب الهمم العالية لا يداخلهم اليأس، وإذا ما سُدّت في وجوههم بعض النوافذ حاولوا أن يعالجوا نوافذ أخرى يتدرعون بالصبر ويتدرعون بالأمل، ومن أدام طرق الباب يوشك أن يفتح له.

٥- إن التقليد الأعمى والأُلف المعتاد من العقبات الصعبة في طريق المصلحين، شعار المقلدين في كل عصر (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا)؛ فهٰذه الإلف: العقل ولا المنطق، هو الذي يعرقل جهود المصلحين في كل حين، ومن أجل ذٰلك جَهِدَ الرسل جميعاً في أن يشعروا الإنسان بأنَّه مفكر ويعقل الأمور ويكون مسؤولًا عن تصرفاته، وطلبوا إليه أن يديم النظر في الكون ونظامه، ويتدبر عواقب الأمور ويأخذ نفسه في الطريق السوي والصراط المستقيم، والخليل عليه السلام بذل أوسع الجهود في هٰذا السبيل، فهو يخاطب من القوم عقولهم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٦٩).
(٢) سورة الأحزاب: الآيات (١٠ - ١١).
(٣) سورة الأحزاب: الآية (٢٢).

يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، إن الدين كله ينعى على المقلدين عدم استعمال عقولهم، ويطلب إقامة الدليل وبيان البرهان: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾[2] ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[3]، لذا فإننا ندعو إلى دين يؤيده العلمُ ويؤيد العلمَ ويعتبر اتباع الهوى والظن من أسباب الضلال والانحطاط الإنساني.

٦- قضية العقيدة هي المدخل في عملية الإصلاح، لذا كانت دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على أساس العقيدة التي هي المحرك لسلوك الإنسان: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[4]، وإبراهيم عليه السلام بدأ دعوته: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[5]، وهٰذه هي البداية الصحيحة في كل دعوة إصلاحية واعية.

٧- لقد صادف سيدنا إبراهيم ألواناً من الانحرافات في عقيدة الألوهية؛ فقد صادف أولًا عبدة الأصنام، ثم صادف نموذجاً من المدعين للألوهية، ولقد أبان عليه السلام لكل من هٰذين الفريقين وجه الحق في العقيدة الصحيحة. ثم صادف فريقا ثالثاً يعبد الكواكب في أسلوب سافر دون وساطة من أصنام وغيرها، فجابهها بأسلوب افتراضي ليقود الخصم إلى الحق الواضح والصدق المبين، ولقد خلص إبراهيم عليه السلام عقيدة التوحيد من جميع

(١) سورة الأنبياء: الآيات (٦٦ - ٦٧).
(٢) سورة الأنعام: الآية (١٤٨).
(٣) سورة النمل: الآية (٦٤).
(٤) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).
(٥) سورة الأنعام: الآيات (٧٩ - ٨٢).

ألوان الشرك المعروفة لعهده: فلا عبادة لإنسان ولا لأصنام ولا للملائكة ولا للكواكب. إن هٰذه الانحرافات العقائدية ما زالت يواجهها الدعاة في كل عصر، إن كلًا أو جزءاً، فلا مناص من بيان وجه الحق في العقيدة المرضية عند الله وتوصيل ذٰلك للمدعوين.

٨- إن الابتلاء ضريبة المصلحين، فهو سنة وقانون في الدعوات الربانية: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[١]، وهو، أي الابتلاء، عبارة عن دورة تدريبية تترسخ فيها قضايا الإيمان وعقيدة التوحيد، يخرج منها المسلم وهو أصلب عوداً وأقوم سبيلًا، ولو سلم من ذٰلك أحد لسلم منه الأنبياء والمرسلون، ألم يقل ورقة بن نوفل لرسول الله محمد ﷺ: (لتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه)[٢]، وإضافة إلى كون الابتلاء سنة وقانون، فإنه يتنوع ويتعدد: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٣]. وإننا لنرى خليل الله يبتلى بمحاولة أن يقتلوه حرقاً بالنار، فكان هٰذا الابتلاء نعمة ورفعة، وفي مقابل ذٰلك ابتلي الملك الطاغية نمرود، بالملك، فكان المُلك على المَلك نقمة وضعة، وكانت النتيجة أن ينجو إبراهيم من نار محرقة، في حين يقتل النمرود بالناموس.

٩- تمثل حادثة نجاة إبراهيم عليه السلام تحقيقاً للوعد الأزلي بنجاة رسل الله وبنجاة المؤمنين: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، ولا تعني النجاة - ضرورة - السَّلامة في هٰذه الدار، بل إننا نجد أنبياءً قتلوا وأولياءً مُوِّتوا، والقرآن يقص كل ذٰلك علينا، ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾[٥]، وأيضاً: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[٦] جاء في قراءة: (وكأين من نبي قُتل معه ربيون

(١) سور العنكبوت: الآية (٢).
(٢) سيرة ابن هشام (١١/ ٢٣٨).
(٣) سورة الأنبياء: الآية (٣٥).
(٤) سورة يونس: الآية (١٠٣).
(٥) سورة البروج: الآيات (٤ - ٦).
(٦) سورة آل عمران: الآية (١٤٦).

كثير)، وفي الحديث: «لقد كان من قبلكم يحفر له في الأرض ويوضع المنشار على مفرق رأسه ويشق بنصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه والعظم، ما يصرفه ذٰلك عن دينه قيد شعرة، والله ليتمن الله هٰذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلَّا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1].

١٠- في طلب إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إشارة إلى أهمية التجربة العملية في ترسيخ الإيمان والاطمئنان القلبي والوصول إلى اليقين. وكأن القرآن يدعونا إلى الالتفات إلى المنهج التجريبي العلمي في عرض حقائق الدين وقضاياه، وقد سلك سلفنا الصالح هٰذا المسلك وأفادوا من علوم عصرهم بل تفوقوا في هٰذا الميدان ايما تفوق، فهل قام الأحفاد بما برز فيه الأجداد؟.

١١- لم يتوقف إبراهيم عن دعوته بعد أن لم يجبه قومه وإنما هاجر تلقاء الأرض المقدسة وهو يضم بين جوانحه دعوة الخير والهداية وما أن رزقه الله الولد حتى كان حريصاً أشد الحرص على أن يتمسكوا بها ويعضوا عليها بالنواجد.

١٢- لم يصرح القرآن الكريم بأن إبراهيم دعا الأقوام الأخرى، غير قومه، إلى دعوته ولا يعني هٰذا أنَّه لم يدع أحداً ولكن لم يفعل ما فعله مع قومه.

١٣- استجاب إبراهيم لكل الأوامر الإلٰهية وكان منها ابتلاءات صعبة، فكوفئ على ذٰلك أن جعله الله الأسوة الحسنة لكل من جاء بعده.

١٤- توضح دراستنا الحرص الكبير لدى سيدنا إبراهيم في أن تنفذ أوامر الله بكل تفاصيلها وأن يتمسك بها ذووه وأن يتوارثوا ذٰلك كي يطمئن.

١٥- بعد أن رأى إبراهيم ثمرة جهده وجهاده في بناء الدين الحنيف، والتزام بنيه به دعاه خالقه لضيافته فالتحق بالرفيق الأعلى قرير العين مسرور الضمير مرتاح البال عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام.

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٦١٩)؛ مسند أحمد (٥/ ١٠٩).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي (ت٥٤٣هـ)، طبعة دار الفكر، بيروت.

٣- إحياء علوم الدين، الإمام محمد أبي محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، دار الندوة الجديدة، بيروت.

٤- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق رشدي الصالح، دار الأندلس.

٥- الأدب المفرد، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الدار السلفية، القاهرة، ١٣٧٩هـ، نشره: قصي محيي الدين الخطيب.

٦- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السَّلام للطباعة والنشر، القاهرة.

٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٧٩١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨- البحر المحيط، محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م.

٩- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت٧٧٩هـ)، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٠- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ)، الطباعة المنيرية، مصر.

١١- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢.

١٢- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية، تونس.

١٣- تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم)، طبعة دار العصفور، مصر، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.

١٤- التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت٨١٦هـ)، تحقيق د. أحمد مطلوب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٥- تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٦- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

١٧- التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، دار الجيل، بيروت، ط٦.

١٨- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، تأليف الإمام جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان.

١٩- تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين بن شريف النووي، دار الطباعة المنيرية، مصر.

٢٠- تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمٰن بن بكر السيوطي، عالم الكتب، بيروت.

٢١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٢- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٣- جواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلى، بيروت.

٢٤- دراسات في التفسير الموضوعي، د. أحمد جمال العمري، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، أبو بكر عبد الرحمٰن جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٦- الرد على الجهمية، تأليف الإمام عثمان بن سعيد الدارمي (ت٢٨٠هـ)، قدم له وخرج أحاديثه وعلق عليها بدر الدين البدر، الدار السلفية، الكويت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٧- دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، طبع مكتبة النهضة، بغداد، العراق، أوفسيت.

٢٨- دلائل النبوة وأحوال صاحب الشريعة، الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٢٩- الرسالة القشيرية في علم التصوف، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، دار التربية، بغداد.

٣٠- روح البيان، الإمام الشيخ إسماعيل حقي البروسي (ت١١٣٧هـ)، دار الفكر للطباعة، بيروت.

٣١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت١١٢٧هـ)، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٣٢- رياض الصالحين، تأليف الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، حقق نصوصه وخرج أحاديث وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٩٨٥م.

٣٣- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (ت٥٨٧هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٣٤- زبدة التفسير من فتح القدير (مختصر من تفسير الشوكاني)، محمد سليمان عبد الله الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية الإسلاميَّة، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٣٥- الزهد والرقاق، الإمام شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك المروزي (ت١٨١هـ)، حقق وعلق عليه الأستاذ الشيخ حبيب الرحمٰن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، حمص - سوريا.

٣٦- سنن ابن ماجه، الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت٢٧٥هـ)، حقق نصوصه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.

٣٧- سنن أبي داود، الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت٢٧٥هـ)، دار الجيل، بيروت.

٣٨- سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت٢٥٥هـ)، محمد أحمد دهمان، دار إحياء السُّنَّة النبوية، بيروت.

٣٩- سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي، الإمام عبد الرحمٰن النسائي، وحاشية الإمام السندي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

٤٠- الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وجماعته، دار إحياء الدار العربي، بيروت.

٤١- السيرة النبويَّة لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وجماعة، طبعة المكتبة العلمية، بيروت.

٤٢- شرح السنة، الإمام محيي السُّنَّة أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت٥١٦هـ)، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، طبع المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق.

٤٣- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، بشرح فتح الباري، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٤٤- صحيح مسلم بشرح النووي، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٤٥- صفوة البيان لمعاني القرآن، حسين محمد معلوف، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الكويت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤٦- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤٧- العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، ط٢.

٤٨- عصمة الأنبياء، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي فخر الدين الرازي، المكتبة الشرقية، بغداد.

٤٩- العقائد الإسلاميَّة، سيد سابق، مكتبة التحرير، ١٩٨٩م.

٥٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحيي الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٥١- فضل الصَّلاة على النبي ﷺ، تأليف الإمام إسماعيل بن إسحاق القاضي (١٩٩هـ - ٢٨٢هـ)، تحقيق عبد الحق التركماني، رمادي للنشر، السعودية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٥٢- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل السباتي مع مختصر شرح بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، تأليف أحمد الشيباني.

٥٣- فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من عالم التفسير، محمد بن علي الشوكاني اليماني الصنعاني (ت١٢٥٠هـ)، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٠هـ.

٥٤- فضائل الصحابة، الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل، تحقيق وحي الله محمد عباس، نشر مركز البحث العلمي والدراسات الإسلاميَّة، مكة المكرمة.

٥٥- فقه السنة، سيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٥٦- فقه السيرة، محمد الغزالي، طبعة عالم المعرفة.

٥٧- في رحاب الأنبياء والرسل، د. عبد الحليم محمود، كتاب اليوم، دار الأخبار، القاهرة.

٥٨- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٥، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

٥٩- قصص الأنبياء، محمد أحمد جاد المولى وجماعة، طبعة دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٦٠- قصص الأنبياء، أبو الفداء الحافظ عماد الدين بن إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

٦١- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة العلوم، القاهرة، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

٦٢- القصص القرآني، تحقيق الدكتور فاضل عباس، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٦٣- الكامل في التاريخ، أبو الحسن بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (ت٦٣٠هـ)، مطبعة المسيرية بالقاهرة، ١٣٤٨هـ.

٦٤- كتاب الأربعين حديثاً، الإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري (ت٣٦٠هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق د. محمود النقراشي السيد علي، الناشر مكتبة دار العليان.

٦٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٦٦- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن.

٦٧- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار الفكر، بيروت.

٦٨- لطائف الإشارات، القشيري، تحقيق إبراهيم بسيوني، طبعة دار الكتاب العربي، مصر.

٦٩- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن حسن الطبرسي (ت٥٦١هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٧٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ١٩٨٢م.

٧١- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٧٢- مختصر تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، د. صالح أحمد رضا، عالم الكتب، بيروت، ط١.

٧٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب، ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ).

٧٤- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، الإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت٧٠١هـ)، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م.

٧٥- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٤، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٧٦- المستدرك على الصحيحين، الإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

٧٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، طبع المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٧٨- المسند، الإمام الحافظ الكبير أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي (ت٢١٩هـ)، حقق أصوله وحقق عليه الأستاذ حبيب الرحمٰن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٧٩- مع الأنبياء في القرآن الكريم، تحقيق عبد الفتاح طبارة، طبعة دار العلم للملايين، بيروت.

٨٠- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغداد، دار بيروت.

٨١- المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وجماعة، دار الأمواج، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٨٢- المفردات، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالزغب الأصفهاني.

٨٣- المعجم الصغير، الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تقديم وضبط كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت - لبنان.

٨٤- المعجم الكبير، الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠هـ - ٣٦٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي، مزيدة ومنقحة مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، ط٢.

٨٥- مكارم الأخلاق، الإمام الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق د. فاروق حمادة، مكتبة المعارف، الرباط.

٨٦- الملل والنحل، أبي الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

٨٧- المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢.

٨٨- المنتقى من السنن المسندة عن رسول الله ﷺ، الإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن الجارود (ت٣٠٧هـ)، فهرسه وعلق عليه عمر البارودي، مؤسسة الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١.

٨٩- من أبناء الرسل، عبد السَّلام محمد بدوي، طبعة دار القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٩٠- منازل السائرين، عبد الله الأنصاري، بغداد، الشرق الجديد.

٩١- موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٩٢- النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٥م.

٩٣- النهاية في غريب الحديث والأثر، الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد، المكتبة العلمية، بيروت، ٥٤٤هـ - ٦٠٦هـ.

٩٤- يسألونك في الدين والحياة، د. أحمد الشرباصي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

❁ المجلات

٩٥- مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد الثامن، من مناظرات القرآن الكريم ومحاوراته، للمرحوم منير القاضي.

٩٦- مجلة الهداية، مفتي الجمهورية التونسية، العدد (١)، السنة (٢١)، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

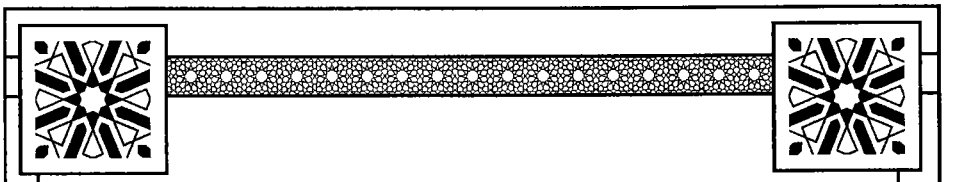

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

المقدمة ٣
الباب الأول: حياة إبراهيم عليه السلام ٧
التمهيد ٩
الفصل الأول: حياته الشخصية ١٣
المبحث الأول: ولادته ونسبه وأسرته ١٥
۞ أولاً: ولادته ١٥
۞ ثانياً: نسبه ١٦
۞ ثالثاً: أسرته ١٨
أ - أبوه وأمه: ١٨
ب - زوجاته وأولاده: ٢٤
١ - سارَّة: ٢٤
٢ - هاجر: ٢٥
٣ - قنطوراء: ٢٦
٤ - حجون: ٢٦
ج - أولاده: ٢٦
١ - إسماعيل عليه السلام ٢٦
٢ - إسحاق عليه السلام ٢٦
المبحث الثاني: نشأته، هجرته، رحلاته ٢٩
أ - نشأته: ٢٩
ب - هجراته: ٢٩

الموضوع	الصفحة

ج - رحلاته: ٣١
الرحلة الأولى: ٣١
الرحلة الثانية: ٣٢
الرحلة الثالثة والرابعة: ٣٢
الرحلة الخامسة: رحلة بناء البيت الكعبة المشرفة ٣٣
المبحث الثالث: أوصافه ووفاته ٣٥
أولاً: أوصافه ٣٥
ثانياً: وفاته ٣٥
الفصل الثاني: صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام ٣٩
الصفات الأخلاقية للخليل عليه السلام ٤١
١ - الصديقية ٤٢
٢ - الحلم ٤٥
٣ - الأواه ٤٨
٤ - الإنابة ٤٩
٥ - الكرم ٥٣
٦ - إبراهيم أُمَّة ٥٦
٧ - الوفاء ٥٨
الباب الثاني: نبوة إبراهيم عليه السلام ٦٥
الفصل الأول: ملة إبراهيم عليه السلام ٦٧
تمهيد ٦٩
المبحث الأول: الحنيفية ٧٣
۞ التعريف اللغوي للحنيفية ٧٣
۞ التعريف الاصطلاحي ٧٦
المبحث الثاني: نفي اليهوديَّة والنصرانيَّة عن إبراهيم عليه السلام ٧٩
المبحث الثالث: الإسلام ٨١
المبحث الرابع: التوحيد، ونفي الشرك عنه ٨٥
الفصل الثاني: الابتلاءات ٨٧

الموضوع الصفحة

المبحث الأول: الابتلاء بالكلمات ٨٩
المبحث الثاني: رفض دعوته ٩٣
المبحث الثالث: الإحراق ٩٧
المبحث الرابع: الهجرة ٩٩
المبحث الخامس: محنته في مصر ١٠١
المبحث السادس: العقم وتأخر الإنجاب ١٠٣
المبحث السابع: إبعاد الابن الوحيد ١٠٥
المبحث الثامن: الأمر بذبح ولده ١٠٧
من هو الذبيح؟ ١٠٨
الفصل الثالث: المعجزات والمنح الإلهية ١٠٩
المبحث الأول: المعجزات ١١١
المعجزة الأولى: خروجه من النَّار سالماً ١١١
المعجزة الثانية: رد كيد فرعون ١١٣
المعجزة الثالثة: الإنجاب في سن اليأس ١١٤
المعجزة الرابعة: زمزم ١١٤
المعجزة الخامسة: فداء الذبيح ١١٥
المعجزة السادسة: الدَّعوة المستجابة ١١٦
المعجزة السابعة: رؤيته ملكوت السَّماوات والأرض ١١٨
المبحث الثاني: المنح الإلهية ١٢١
۞ الإمامة ١٢١
۞ الأمر الثاني: في أسباب الإمامة ١٢٢
۞ الرحمة ١٢٤
۞ الملك العظيم ١٢٨
۞ الخلة ١٣٠
الفصل الرابع: صحف إبراهيم عليه السلام ١٣٧
صحف إبراهيم عليه السلام ١٣٩
الباب الثالث: الدعوة عند إبراهيم عليه السلام ١٤٧

الموضوع	الصفحة

توطئة ١٤٩
الفصل الأول: الدعوة قبل الهجرة ١٥١
تمهيد ١٥٣
المبحث الأول: بدء الدعوة ١٥٥
۞ المطلب الأول: دعوته لأبيه ١٥٥
۞ المطلب الثاني: دعوته لقومه ١٥٦
الحوار الأول: ١٥٧
كيفية الحوار ووقته: ١٥٩
الحوار الثاني: ١٦٠
الحوار الثالث: ١٦٢
۞ المطلب الثالث: التهديد والوعيد ١٦٦
۞ المطلب الرابع: استخدام القوة في تحطيم الأصنام ١٦٧
المبحث الثالث: مناقشته للملك ١٧١
المبحث الرابع: طلبه لليقين ١٧٥
الفصل الثاني: الدعوة بعد الهجرة ١٧٩
تمهيد ١٨١
المبحث الأول: بناء العقيدة في قلوب أبنائه ١٨٥
المبحث الثاني: الجهد البدني المعماري ١٨٩
۞ المطلب الأول: بناء البيت ١٨٩
مقام إبراهيم: ١٩١
۞ المطلب الثاني: تطهير البيت ١٩٢
۞ المطلب الثالث: الأذان بالحج ١٩٣
المبحث الثالث: عبادات إبراهيم عليه السلام ١٩٥
الدعاء: ١٩٦
الصَّلاة: ٢٠٧
الزكاة: ٢٠٨
الحج: ٢٠٨

الموضوع	الصفحة

الشكر: ٢٠٩
التحية: ٢١٠
الرجاء وعدم القنوط: ٢١١
العزلة: ٢١١
التوكل: ٢١٢
الاستغفار: ٢١٣
البكاء: ٢١٤
النسك: ٢١٤
الخاتمة ٢١٧
فهرس المصادر والمراجع ٢٢٣
فهرس الموضوعات ٢٣٣

SAYYIDUNĀ IBRĀHĪM عليه السلام FĪ AL-QUR'ĀN AL-KARĪM

(Abraham in The Holy Qur'an)

by

Dr. Muḥammad Šākir ʿAbdullah al-Kubaysi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon